

الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

شعراء الخلفاء العباسيين

عرفنا في كتاب العصر العباسي الأول أن حزب الخوارج الذي كان يصارع الأمويين مصارعة عنيفة خَمَدَ أَوَارُهُ ، ولم تَبْقَ منه حينئذٍ إلا أسراب قليلة حتى إذا كنا في هذا العصر العباسي الثاني كادت تجفُّ هذه الأسراب ، ولم يَعدْ من يُعلن أنه خارجي أو يدافع عن الخوارج إلا أفراد قد نجدهم هنا أو هناك دون أن يكونوا حزباً أو يعملوا على نشر دعوة ، إنما هي أفكار قد تَعَنَّى لشخص ، وقد يَتَبَنَّاها ، ولكن دون أن يَحْمِلَ من أجلها السلاح ودون أن يتغنَّى بها شعراً ، إلا ما كان من صاحب الزنج فإنه مزج في دعوته بين التشيع ومذهب الأزارقة من الخوارج على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، إذ كان يستحلّ قتل أطفال المسلمين ونساءهم ويرى المسلمين جميعاً كفاراً ينبغى استئصالهم ، بالاضبط على نحو ما كان يذهب الأزارقة . ولكن حتى هذه الحركة الثائرة حركة الزنج لا نستطيع أن نسميها حركة من حركات الخوارج ، لأنها كانت تزعم أو يزعم صاحبها أنها حركة شيعية ناسباً نفسه إلى فاطمة الزهراء كذباً وافتراء . وكأنما كان اضمحلال مذاهب الخوارج هو الذي جعله ينسب دعوته إلى البيت العلوي .

أما حزب الشيعة فقد ظلت نيرانه لا تخمد في هذا العصر ، بل لعلها ازدادت اشتعالاً ، بكثرة من كانوا يثورون من العلويين في الحجاز وفي طبرستان وشرق الدواة ، وكان وراء هذه الثورات شعر كثير يؤازرها ويناصرها ويرى بقذائفه وشعله على العباسيين . وكان كثير من الشعراء يقف مع العباسيين ، بل لقد كانت كثرتهم

الغامرة تقف معهم ؛ لأنهم أصحاب الدولة وفي أيديهم خزائنهم وأموالها يكيلون لهم منها كسيلاً ، فكان طبيعياً أن يكثر مدّاحهم ودُعائهم ، بل إن كثيرين من شعراء الشيعة أنفسهم كانوا يُظْهِرون غير ما يُبْطِنون ، فيمدحون هذا الخليفة العباسي أو ذاك لقاء ما يُنْشَرُ عليهم من دراهم ودنانير . وكان منهم الخليفة المعتدل الذي لا يتَحَمَّل على البيت العلوي ولا يضْطغن مثل المنتصر ، وكان منهم المتحامل المبعض مثل أبيه المتوكل أول خلفاء هذا العصر ، وقد مرّ بنا أمره بِحَرْث قبر الحسين ومَسْحِ أرضه ومسّح الناس من زيارة مكانه وكذلك زيارة قبر أبيه في النجف ، وغدا آل أبي طالب في محنة عظيمة طوال عهده يخافون على أنفسهم من القتل أو من الحبس . وتقرَّب إليه غير شاعر من مثل علي بن الجهم بِشْتَم على رضى الله عنه كما أسلفنا ، إما نَصْحاً وإما تعريضاً كقول الجُمَّاز أحد ندمائه (١) :

ليس لي ذنبٌ إلى الله بعة إلا خلتين
حبَّ عثمان بن عفَّان وحبَّ العُمَريِّين

يريد بالعمرين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ملوِّحاً بأنه من أهل السنة ، وأنه على مذهب المتوكل في التَّسَنُّن ومَنَقَت الشيعة . وفتح المتوكل أبوابه للشعراء كي يمدحوه ويمدحوا بيته ويبرهنوا على أنه هو البيت الوارث حَقّاً للخلافة ، ملوِّحين في وجوه العلويين ومن يقدِّنون معهم من الشيعة . وعرف الشعراء فيه هذا الجانب ، فاستغلوه بِقَدَمِهِم ابن الجهم وروان بن أبي الجنوب وغيرهما كثيرون ، وأتوه من كل فَجٍّ من الشام والموصل والكوفة والبصرة والجزيرة العربية . وكان ممن أقبل عليه من الكوفة أبو الشَّيْبَلِ البُرْجُمِيِّ ، حتى إذا دخل عليه أنشده قصيدة مؤلفة من ثلاثين بيتاً استهلَّها بقوله (٢) :

أَقْبِلْ فَالْخَيْرُ مَقْبِلٌ واتركي قولَ المعلِّ
وثقني بالتُّجْعِ إِذْ أَبْ صرَّت وجهَ المتوكل

وما إن انتهى منها حتى أمر له بألف درهم لكل بيت ، فانصرف بثلاثين ألف

(٢) الأغاني (طبع دار الكتب المصرية)

١٩٣/١٤

(١) معجم الشعراء للمرزباني (طبعة الخاني)

ص ٣٧٥

درهم . وكان يَغْدُو وَيَسْرُوحُ فِي رِكَابِهِ الْبَحْتَرَى يَمْدَحُهُ فِي كُلِّ مَنَاسِبَةٍ مُشِيداً بِآبَائِهِ وَوَرَائِهِ لِنُورِ النُّبُوَّةِ وَإِمَامَتِهِ يَهْتَدِي وَعَدْلُهُ ، وَيَتَحَوَّلُ إِلَى مَا يَشْبَهُ دَاعِيَةً لَهُ فِي كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ . وَمِنْ طَرِيفٍ مَا نَقَرْنَا مِنْ مَدَائِحِ الْمُتَوَكِّلِ عِنْدَ غَيْرِهِ مَدْحَةٌ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَدْبَرِ وَكَانَ لَا يَزَالُ شَابِثاً يَعْمَلُ فِي دَوَاوِينِهِ ، فَرَضَ الْمُتَوَكِّلُ ثُمَّ عَوَى ، وَدَخَلَ النَّاسُ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ يَهْتَنُونَ بِالْإِبْلَالِ مِنْ مَرَضِهِ ، وَدَخَلَ إِبْرَاهِيمُ ، وَلَمْ يَكُنْ يَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى أَنْشَدَهُ قَصِيدَةً يَهْتَدِي فِيهَا بِسَلَامَتِهِ مَهْلَلاً مُبْتَهِجاً مَعَ الْمُبْتَهِجِينَ الْمُهْلَلِينَ ، وَفِيهَا يَقُولُ ^(١) :

اليوم عادَ الدِّينُ غَضَّ العودِ ذَا وَرَقٍ نَضِيرِ
يا رَحْمَةً للعالمِ نَ ويا ضياءَ المستنيرِ
يا حجةَ الله التي ظهرتْ له بِهْدَى ونورِ

والمبالغة واضحة وكأننا يازغ غال من غلاة الشيعة يمدح إمامه ، وقد لعبت فيما بعد كلمة « حجة الله » دوراً كبيراً في المذهب الإسماعيلي الفاطمي . وكان طبيعياً أن يَطْرُبَ الْمُتَوَكِّلُ حِينَ سَمِعَ الْقَصِيدَةَ ، فَيَأْمُرُ لَهُ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ وَيَتَقَدَّمُ إِلَى وَزِيرِهِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى أَنْ يُولِيَهُ عَمَلاً جَلِيلاً يَنْتَفِعَ بِهِ . وَكَانَ كَثِيرُونَ يَسِيلُ لُعَابِهِمْ لِمِثْلِ هَذَا الْعَطَاءِ الْجَزِيلِ ، حَتَّى كَبَارِ الْكِتَابِ مِنْ أَمْثَالِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ الصُّوْلِيِّ ، وَكَانُوا مَا يَزَالُونَ يَنْتَهِزُونَ الْفُرْصَ مِنَ الْأَعْيَادِ وَالْمَنَاسِبَاتِ ، وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ هَذِهِ الْمَنَاسِبَاتِ عَقْدُ الْمُتَوَكِّلِ الْبَيْعَةَ لَوَلَاةِ الْعُهُودِ أَبْنَائِهِ الثَّلَاثَةِ : الْمُتَنَصِّرِ فَالْمُعْتَزِ فَالْمُؤَيَّدِ ، وَصَنَعَ لِذَلِكَ مَوْكِباً ضَخِماً ، سَارَ فِيهِ مَعَ أَوْلَادِهِ حَتَّى نَزَلَ الْقَصْرَ الَّذِي سَمَّاهُ الْعُرُوسَ وَأَذِنَ لِلنَّاسِ فَدَخَلُوا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا تَكَامَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَفَ الصُّوْلِيُّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ ، وَاسْتَأْذَنَ فِي الْإِنْشَادِ فَأَذِنَ لَهُ فَقَالَ ^(٢) :

أَضَحَّتْ عُرَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مَنْوُطَةٌ بِالنَّصْرِ وَالْإِعْزَازِ وَالتَّسَايُيدِ
بِخَلِيفَةٍ مِنْ هَاشِمٍ وَثَلَاثَةِ كَنَفُوا الْخِلَافَةَ مِنْ وُلَاةِ عُهُودِ

التأليف والترجمة والنشر) مع مجاميع شعرية
أخرى ص ١٣١ .

(١) أغاني (طبعة الساسي) ١١٤/١٩ .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٦٤/١٠ .

وانظر الطبري ١٨١/٩ والديوان (طبع بلخنة

قمرٌ توافَتْ حوله أقمارُهُ فَحَفَفْنَ مَطْلَعَ سَعْدِهِ بسعود
كَنَفَتْهُمُ الآبَاءُ واكتنفت بهنَّ فَسَعَوْا بِأَكْرَمِ أَنْفُسٍ وجدود

فأمر له المتوكل بمائة ألف درهم وأمر له ولاية العهد بمثلها . ويتولى بعده المنتصر ،
فيفرع المحنة عن آل أبي طالب ويدفع عنهم الأذى ويردُّ عليهم الأمن ، ويتغنى
شعراؤه بهذا الصنيع ، يتغنى البحترى ويتغنى غيره ، ويتغنى شعراء الشيعة من
أمثال يزيد^(١) بن محمد المهلبى . وسرعان ما يخلفه المستعين ، وفيه يقول أحمد بن
يحيى البلاذرى^(٢) :

ولو أنَّ بُرْدَ المصطفى إِذْ لَيْسَتْهُ يَظُنُّ لَظَنَ البُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهُ
وقال وقد أعطيته ولَبِستُهُ نَعَمْ هَذِهِ أَعْطَافُهُ وَمَنَاقِبُهُ

ويتولَّى الخلافة بعده المعتز ، وكان شاعراً مجيداً ، ولو امتدت به الخلافة
لكان مثل ابنه عبد الله فى خصب ملكاته الشعرية ، وقصده كثير من الشعراء ،
ليأخذوا جوائزهم أو ليصحبوا من ندمائه إذ كان صاحب لهو وقصف ، فلم يكده يتسلم
مقاليد الخلافة حتى فتح أبوابه لهم ، وكان ممن دخل عليه وأنشده مهنثاً أبوعلی
البصير قائلاً^(٣) :

أَبَ أَمْرُ الإسلام خَيْر مَابَهِ وَغدا الملك ثابتاً فى نِصايَهِ
مستقراً قراره مطمئناً أهلاً بعد نايَهِ واغترابَهِ

وتطول مدة المعتمد نحو عشرين عاماً أو تزيد سنوات ، وكان فيه لهو وانغماس
فى الترف ، ولكن يده كانت مكفوفة عن المال ، كفها أخوه وولىَّ عهده الموفق
أشد بنى العباس شكيمه لعصره وأحزمهم بكل معانى الحزم وأروعه . وكأنا اختاره
القدر فى عصر أخيه إينازل الزنج وصاحبهم فى ثورتهم العارمة ويقضى عليها قضاء
مبرماً . فكان طبيعياً أن ينصرف الشعراء عن الخليفة إلى ولى عهده وأجاده الحربية
فى وقائعهم مع الزنج من جهة ومع يعقوب الصفَّار من جهة ثانية . وقد صورنا هذه

(٣) مروج ٤ / ٨٢ .

(١) مروج الذهب ٤ / ٥٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٨ .

الوقائع في غير هذا الموضع ، وفي وقائعه مع الصفار يقول ابن فَيْسِد الطائي مصوراً انتصاره^(١) :

ووليَّ عهد المسلمين موفِّقٌ بالله أمضى من شهابٍ ثاقبٍ
يا فارسَ العُربِ الذي ما مثله في الناس يُعرَفُ آخرُ لنواثبِ

وتولَّى الخلافة المعتضد ، وكان مثل أبيه شجاعة وفروسية وحزمًا ، ومربِّنا أنه كان من مدَّاحه ابن الرومي فهو يهنته في الأعياد المختلفة وينتَهز كل مناسبة لينظم فيه أشعاره مهللاً ممجداً . ونظم فيه ابن المعتز كثيراً من مدائحه ، كما أسلفنا ، وكان قُرَّة عينه ، وله صنع أرجوزته التاريخية التي صوِّرَ فيها عهده تصويراً بارِعاً ، وفيها أصْلَى خصوم العباسيين ناراً حامية ، مصوراً بشاعة ثورتي الزنج والقرامطة ، وكأنما جرَّد من نفسه محامياً أمام أبناء عمومته العلويين مدافعاً عن بيته وحقوقه في الخلافة ، ومربِّنا ذلك في حديثنا عنه . ويتولَّى المكتفي بعد أبيه المعتضد ويُستبغ عليه ابن المعتز مدائحه ، كما يُستبغها أبو بكر الصولي وغيره . ثم تكون خلافة المقتدر وتأخذ الدولة في الانتكاس . ويظل الشعراء يقدمون مدائحهم للخلفاء طلباً للنوال من أمثال ابن بَسَّام^(٢) وغير ابن بسام . ونحن نقف عند ثلاثة من شعراء العصر طالما مدحوا خلفاءه ، وهم مروان بن أبي الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولي .

مروان بن أبي الجنوب أبو السمط^(٣)

حفيد مروان بن أبي حفصة شاعر الخليفة المهدي ، أصل موطنهم اليامة ، وقد سلك مسلك جدِّه في الطعن على آل علي بن أبي طالب ، فكان طبيعياً أن يفتح له جعفر المتوكل أبواب قصره وقد بلغ من حَسَنِّقه على أبناء عمه العلويين

والطبري ٩/ ٢٣٠ والأغاني (طبعة السامي) ٩/ ٣٤

وتاريخ بغداد ١٣/ ١٥٣ والفهرست لابن

الديم ٢٣٥ ومعجم الشعراء للمرزباني

ص ٣٢١ والموشح ص ٣٤٤ ووفيات الأعيان

وخزائن الأدب للبغدادى ١/ ٤٤٧

(١) طبري ٩/ ٥٢٠ .

(٢) انظر أخبار الرازي والمتقى في كتاب

الأوراق الصولي .

(٣) راجع في أخبار مروان وأشعاره الشعر

والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن المعتز

ص ٣٩٢ ومروج الذهب ٤/ ٥٢ ، ٨٣

١ سَوَّرَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَيَبْدُو أَنَّ الْوَائِقَ لَمْ يَكُنْ يُعْجَبُ بِهِ وَلَا بِشَعْرِهِ
فَنَفَاهُ إِلَى الْيَمَامَةِ ، فَلَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ الْمُتَوَكِّلَ بَعَثَ إِلَى ابْنِ أَبِي دُوَادَ مُسْتَشَارَهُ
بِقَصِيدَةٍ مِلْحَةٍ بِهَا ، ذَمَّ فِيهَا ابْنَ الزِّيَّاتِ وَزَيْرَ الْوَائِقِ ذِمًّا قَبِيحًا ، وَكَانَ الْمُتَوَكِّلُ
قَدْ قَبِضَ عَلَى أَمْوَالِهِ وَعَدَّ بِهِ فِي تَسَنُّورٍ مِنْ خَشَبٍ مَلَأَهُ بِمَسَامِيرٍ مِنْ حَدِيدٍ حَتَّى مَاتَ
فَقَالَ فِيهِ مَرْوَانُ :

وَقِيلَ لِيَ الزِّيَّاتُ لَاقَى حِمَامَهُ فَقُلْتُ أَتَانِي اللَّهُ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ
لَقَدْ حَفَرَ الزِّيَّاتُ بِالْغَدْرِ حُفْرَةً فَأُلْقَى فِيهَا بِالْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ
وَكَانَ ابْنُ الزِّيَّاتِ أَوَّلَ مَنْ عَمِلَ هَذَا التَّسَنُّورَ ، وَعَدَّ بِهِ نَفَرًا . وَمَا إِنْ صَارَتْ
الْقَصِيدَةُ إِلَى ابْنِ أَبِي دُوَادَ حَتَّى طَارَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ وَأَنْشَدَهُ الْبَيْتَيْنِ السَّالِفَيْنِ ، فَأَمَرَهُ
بِإِحْضَارِهِ . فَقَالَ لَهُ إِنَّهُ بِالْيَمَامَةِ ، كَانَ الْوَائِقُ نَفَاهُ لِمُودَّتِهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَلَيْهِ
دَيْنٌ : سِتَّةَ آلَافٍ دِينَارٍ ، فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ : يُعْطَاهَا . فَأَعْطَيْتُ لَهُ ، وَجِئْتُ بِهِ إِلَى
سَامِرَاءَ ، فَدَخَلَ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ وَأَنْشَدَهُ قَصِيدَةً لَامِيَةً يَقُولُ فِيهَا :

كَانَتْ خِلَافَةُ جَعْفَرٍ كَنْبُورَةً جَاءَتْ بِلا ظَلَبٍ وَلَا بَتْنَحْلٍ
وَهَبَ الْإِلَهُ لَهُ الْخِلَافَةَ مِثْلَمَا وَهَبَ النَّبُوءَةَ لِلنَّبِيِّ الْمُرْسَلِ
فَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ . وَأَخَذَتْ هِبَاتُ الْمُتَوَكِّلِ الْغَدَقَةَ تَنْثُرُ عَلَيْهِ نَشْرًا ،
فَهُوَ يَغْدُو وَيَرْوِحُ عَلَيْهِ بِالْمَدَائِحِ . وَالْمُتَوَكِّلُ يُسَبِّحُ عَلَيْهِ عَطَايَاهُ ، وَكَانَ مِمَّا أَخَذَ فِيهِ
نَوَالًا كَبِيرًا قَصِيدَتَهُ التَّمَالِيَةَ الَّتِي أَنْشَدَهَا الْمُتَوَكِّلُ حِينَ عَقَدَ وِلَايَةَ الْعَهْدِ لِأَبْنَائِهِ الثَّلَاثَةِ :
مُحَمَّدَ الْمُتَنْصِرَ وَعَبْدَ اللَّهِ الْمُعْتَزَّ وَإِبْرَاهِيمَ الْمُؤَيَّدَ ، وَفِيهَا يَقُولُ :

ثَلَاثَةٌ أَمْلَاكَ فَأَمَّا مُحَمَّدٌ فَنُورٌ هُدًى يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ يَهْدِي
وَأَمَّا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ شَبِيهَكَ فِي التَّقْوَى وَيُجَلِّدِي كَمَا تُجَلِّدِي
وَذُو الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ النَّاسِ عَصَمَةٌ تَقِيُّ وَفِيَّ بِالْوَعِيدِ وَبِالْوَدِّ
فَأُولَهُمْ نُورٌ وَثَانِيَهُمْ هُدًى وَثَالِثُهُمْ رُشْدٌ وَكُلُّهُمْ مَهْدًى
فَلَمَّا أَتَمَّ أَنْشَادَهَا أَمَرَ لَهُ الْمُتَوَكِّلُ بِمِائَةِ عِشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَخَمْسِينَ ثَوْبًا وَبِغَلَّةِ
فَرَسٍ وَخِمَارٍ . فَأَبْرَحَ حَتَّى قَالَ فِي شُكْرِهِ :

تَخَيَّرَ رَبُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ جَعْفَرًا فَمَلَكَهُ أَمَرَ الْعِبَادَ تَخَيَّرًا
 حينئذ رَدَّ عَلَيْهِ ضِيَاعَهُ الَّتِي كَانَ ابْنُ الزِّيَاتِ قَدْ صَادَرَهَا وَجَعَلَ لَهُ رَاتِبًا فِي
 الدِّيْوَانِ ، وَلَعَلَّ أَحَدَ مَنْ كَلَّ هَذَا الْمَدِيحَ أَنَّهُ دَافِعٌ بِحَرَارَةٍ فِي جَوَانِبِ مَنْ مَدَّ يَدَهُ عَنْ
 حَقِّقِ الْعَبَاسِيِّينَ فِي الْخِلَافَةِ مُؤْتَسِّيًا فِي ذَلِكَ بِجَدِّهِ مَرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ ، وَاتَّسَبَّى
 بِهِ أَيْضًا فِي الرَّدِّ عَلَى الْعُلَوِيِّينَ وَتَقَضَّى مَا يَدَّعُونَهُ مِنْ وَرَاثَةِ الرَّسُولِ فِي الْخِلَافَةِ ، إِذْ
 هُمْ أَبْنَاءُ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ وَالْعَمُّ مُقَدَّمٌ عَلَى أَوْلَادِ الْبِنْتِ فِي الْوَرَاثَةِ حَسَبَ حُكْمِ
 الشَّرِيعَةِ . وَمَنْ خَيْرٌ مَا يَصُورُ ذَلِكَ عِنْدَهُ قَصِيدَتُهُ الْمِمْصِيَةِ الَّتِي تَحْضِي عَلَى هَذَا
 النَّمْطِ :

مُلْكُ	الْخَلِيفَةِ	جَعْفَرٍ	لِلدِّينِ	وَالدُّنْيَا	سَلَامَةً
لَكُمْ	تَرَاثُ	مُحَمَّدٍ	وَبِعَدْلِكُمْ	تَنْفَى	الظُّلَامَةَ
يَرْجُو	التَّرَاثُ	بَنُو الْبِنَا	بِ	وَمَا لَهُمْ	فِيهَا قُلَامَهُ
وَالصُّهْرُ	لَيْسَ	بِوَارِثٍ	وَالْبِنْتُ	لَا تَرِثُ	الْإِمَامَةَ
أَخَذَ	الْوَرَاثَةَ	أَهْلُهَا	فَعَلَامَ	لَوْكُمْ	عَلَامَهُ

وهو يشير بوضوح في الأبيات إلى أن مصاهرة علي بن أبي طالب للرسول عليه السلام لا توجب له وراثة ، كما يشير إلى أن السيادة فاطمة بنت ، والبنت لا تراث الولاية على المسلمين ولا تحقق لها الإمامة ، فكيف تُورث الإمامة من قبلها ؟ والشريعة واضحة في ذلك . وطار المتوكل حين سمع القصيدة ابتهاجاً ، وقلَّده اليامة والبحرين وخلع عليه أربع خلع ، وخلع عليه ولي عهده المنتصر . وأمر المتوكل له بثلاثة آلاف دينار فنُشرت على رأسه ، وأمر ابنه المنتصر وسعداً الإيتاخى بإتقانها له دون أن يلتقط هو منها شيئاً إكراماً له ، ويقال إنه حشا فنه جوهراً ، ومن طريف ماله فيه قوله :

تَخَشَى الْإِلَهَ فَمَا تَنَامُ عَنَابَةً بِالْمُسْلِمِينَ وَكُلَّهُمْ بِكَ نَائِمٌ
 لَوْ كَانَ لَيْسَ لَهُاشِمٌ فِيمَا مَقْبَى سَلَفٌ سَوَاكَ لَقَامَتْ بِكَ هَاشِمٌ

وقال بعض معاصريه إن المتوكل أعطاه مائتي ألف دينار من ورقي (فضة)

وذهب وكُسُوة . وكانت هذه العطايا الغامرة تملأ نفوس بعض الشعراء من حوله وحول المتوكل حسداً أن تعلو جائزته جوائزهم ، فكانوا يتبادلون معه بعض الأهاجى حتى شاعرٌ نابهٌ مثل علي بن الجهم نراه يتهاجى معه ، ولم يكن مروان يَصْنُم بل كان يبادر أحياناً إلى الهجاء ، ويُرَوِّى أن ابن الجهم قال فى فاتحة قصيدة له فى المتوكل :

اللهُ أكبرُ والنبيُّ محمدٌ والحقُّ أبلجُ والخليفة جعفرُ

ولم يكذ يسمع مروان قوله ، حتى أعمل فكره ، وبادره يقول له ساخراً منه سخرية شديدة بل سخرية مرة شديدة المرارة :

أراد ابنُ جَهم أن يقول قصيدةً بمدح أمير المؤمنين فأذنا فقلتُ له لا تعجلنْ بإقامةِ فليستُ على طُهرٍ فقال : ولا أنا

وكان يقدمُ لمذائحه بنسيب رقيق يحبى فيه نجداً ويدعو لها ولأهلها بالسقيا ويتمنى زورةً لهم أو إلمامة قصيرة . وله أبيات جيدة يتحدث فيها عن الشيب ، والشباب وعهده وعهوده ، وحبه الماضى ، وفيها يقول :

شمسُ الشباب علىَّ اليومَ طالعةٌ وسوف تغربُ إن الدهرُ ذو غيرِ
إذا الشبابُ مضتْ عنا بشاشته فما نُبالى متى صرنا إلى الحُفرِ
لنا من الشوق أكبادُ مصدعةٌ وأعينُ كُحِلتْ بالدَّمْعِ والسَّهرِ
سَقياً ورَعياً لأظعانٍ مُوكَّبةٍ فيها خرائدُ كالغزلانِ والبقرِ
ودَعتهنَ وداعاً زادنى كمداً ما كان إلا كورِدِ الطائرِ الحذِرِ

وله شعر فى المعتز رواه المسعودى فى المروج مما يدل على أنه عاش حتى عصره . ولعل فيما قدمنا من أشعاره ما يدل على خصب شاعريته وأنه كان مثل جدّه يعنى بصقل أشعاره وانتخاب ألفاظه حتى تروق سامعيه بما فيها من جزالة وطلاوة .

على ^(١) بن يحيى المنجم

من أصل فارسي أسلم أبوه يحيى على يد المأمون وخُصَّ به ، ويقال إن جندَّ يحيى أبرسام البُزْرج كان وزيراً لأردشير وصاحب أمره . وشملته عناية المأمون هو وابنه على ، وتوالى عليهما ببرُّه ، وأخذ نجم الأسرة في التألق ببلاط المأمون والمعتمد ، وتوثقت الصلة بين علي ومحمد بن إسحق بن إبراهيم المصعبي ، ثم بينه وبين الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، ووصفه له وقدَّمه إليه ، وأعجب به المتوكل وقربته منه ، حتى صار أكبر ندمائه ، يساعده في ذلك علمه الواسع بالرواية والأخبار . وكان أشبه بالموسوعيين فهو يأخذ من كل علم وكل أدب بطرف ، مع إحسانه اختيار الطرائف والنوادر ، حتى كان المتوكل لا يصبر على بعده . ويقال إنه بلغ مجموع ما وصله به ثلاثمائة ألف دينار ، وخلفه المنتصر فغلب عليه أيضاً ، وقدَّمه على جميع جنسائه ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وأقره المستعين على ما تقلده من تلك الأعمال . ثم خلاص الأمر للمعتز ، فكان أول من طلبه للمنادمته على بن يحيى ، وحين قدم عليه تلقاه أجمل لقاء وخلع عليه ووصله ، وقلَّده الأسواق والعمارات ، وقدَّمه على جميع الندماء ووصله بثلاثة وثلاثين ألف دينار وقلَّده قصره الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ثم أفضى الأمر إلى المعتد ، فسَحَطَ في عهده حُظوة كبيرة ، ووصله صلات سنَّية ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وما زال يحظى برعايته ورعاية أخيه الموفق حتى نهاية حياته .

وابن المنجم نموذج رفيع لندماء الخلفاء ، فقد كان هناك ندماء كثيرون مضحكون كل همهم إضحاك الخلفاء وإدخال السرور على نفوسهم بما يوردون على أسماعهم من الأجوبة الهازلة أو ما يدخلون على ملابسهم وحركاتهم من الصور المضحكة . وكان ابن المنجم مع ظُرفه وما يورد على الخلفاء من النوادر والأخبار والقصص المستحبة ، بل قل مع اكتمال خصال المنادمة فيه ومعرفته بضررب الثقافات ، حتى

والأغاني (طبعة السامي) ٢٢/٩ وتاريخ بغداد
١٢١/١٢ ومروج الذهب ١٩١/٤ والنجوم
الزاهرة ٧٣/٣ .

(١) انظر في حياة علي بن يحيى وأشعاره
معجم الأدباء ١٤٤/١٥ ومعجم الشعراء
للمرزياني ص ١٤١ والفهرست ص ٢١١

قيل إنه طبيب ومنجم وأديب وشاعر ومغن وجليس ومضحك ، مع هذا كله كان فيه غير قليل من الوقار ، وكان يُعبد من رعاة الأدب في عصره حتى كان بيته مألفاً للأدباء ، وكان يصل كثيراً منهم بالخلفاء والأمراء ، ويستخرج لهم منهم الصلات ، وكان يبلغ من عنايته بهم أن يهدي إلى الخلفاء والوزراء عنهم الهدايا الطريفة ، حتى ينفحوهم بالنوال السابغ ، وكان كثيراً ما يهب من ماله لمن يجرمون الصلات من الأدباء . وليس ذلك كل ما يرفع منه ، فقد ألهمه تفكيره الصائب أن يستغل الأموال الكثيرة التي كانت تُنشر عليه من المتوكل وغيره من الخلفاء في إقامة مكتبة ضخمة ، مرّ بنا حديث عنها في غير هذا الموضع ، وكان طلاب العلم يقصدونها من كل مكان والكتب مبدولة لهم ، وكذلك النفقة مهما طالّت إقامتهم . وبذلك كان من رعاة طلاب العلم والأدب في عصره ، بل لعله كان أكبر رعاتهما ، ولا شك في أن ما عُرف عنه من خبرة تامة بالكتب وثقافة واسعة بها هو الذي جعل الفتح بن خاقان يطلب إليه صنْعَ مكتبة له يباهي بها معاصريه . ومن تنمة ثقافته أن يُدكّر له من التصانيف كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين ، وكتاب أخبار إسحق الموصلي وكتاب الطبري ، والكتابان الأخيران بتصلان بمناذمته لاتصاهما بأخبار المغنين وبتذوق الأطعمة .

وكان شاعراً ، وله شعر كثير كما يقول ياقوت في ترجمته ، غير أنه لم يكن يُعجّب بشعره ، ولذلك لم يكثر من الاستشهاد به إلا ما جاء في سياق أخباره ، ولو أنه صنع لاطلعنا بوضوح على أشعاره في الخلفاء والوزراء . ولعل أول شعر قاله ما نظمته في رثاء المأمون ومديح المعتصم ، مما رواه ياقوت في ترجمته ، وبدون ريب كانت له أشعار كثيرة في المتوكل ومن تلاه من الخلفاء ، ونستطيع أن نتخذ صورة لهذه الأشعار قوله في المعتز حين استولى على مقاليد الخلافة :

بَدَا لَابِساً بُرْدَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	بِأَحْسَنَ مِمَّا أَقْبَلَ الْبَدْرُ طَالِعَا
سَمِيَّ النَّبِيِّ وَابْنِ وَارثِهِ الَّذِي	بِهِ اسْتَشْفَعُوا أَكْرَمَ بِذَلِكَ شَافِعَا
وَكُلِّ عَزِيزٍ خَشِيَّةٌ مِنْهُ خَاشِعٌ	وَأَنْتَ تَرَاهُ خَشِيَّةَ اللَّهِ خَاشِعَا

وهو شعر متوسط . شعر يعتمد على المناسبة الحاضرة ، ولذلك كان يستساغ في

وقتها كما تستساغ كلمات الندماء ونوادهم وفكاهاتهم . وهكذا دائماً شعرهم ، فهو
إنما يُعجب في لحظة قوله ، ولذلك كان يُروى مع أخبارهم . ومن هذا الطراز
نفسه قصيدته في الفتح بن خاقان التي أنشد ياقوت منها بعض أبياتها ، وله وراء
ذلك أشعار يصورها سمو نفسه ، لعل من أطرفها قوله :

سيعلم دهري إذ تنكر أننى صبورٌ على نكرانه غير جازع
وأنى أسوس النفس في حال عُسرها سياسةً راضٍ بالمعيشة قانع
كما كنت في حال اليسار أسوسها سياسة عَفٌّ في الغنى متواضع
وأمنعها الورْدَ الذى لا يليق بى وإن كنت ظمآنًا بعيد الشرائع

فهو يصور نفسه صابرة لا تجزع مهما ادهمت الخطوب ، كما يصور نفسه
لا تهون في حال عسر أو شدة ، بل تتقبلها راضية قانعة كما تقبلت اليسر قبلاً
مزدورية مغرياته في تواضع غير مسفة دون أى إحساس باستعلاء ، وإنه ليمنع نفسه
الإلمام بأى ورْدٍ دنى مهما كان ظمآنً ، كاظمًا لظمته ، محتلاً لحرارة عطشه .
وله في الطيف :

بأبى والله من طرَقا كابتسام الصبح إذ خفقا
زادنى شوقاً برؤيته وحشاً قلبى به حرَقا
زارنى طيفُ الحبيب فما زاد أن أغرى بى الأرقا

وكأنما أراد أن يحاكي البحترى في كثرة أشعاره التي نظمها في الطيف . ولا شك
أنه من طراز متوسط ، فأجنحته ليست من القوة بحيث تستطيع أن تحلق به في
الأفق الذي يحلق فيه البحترى . ومَرَّت بنا آنفاً رعايته للأدباء والشعراء ، مما جعل
غير شاعر ينظم فيه بعض مدائحه ، مصوراً كرمه الفياض من مثل قول
أبى هفان :

لربيع الزمان في الحَوْل وقتُ وابنُ يحيى في كل وقت ربيعُ
رجلٌ عنده المكارم سوقٌ يشتري دهره ونحن نبيعُ

ولذلك حين وافاه القدر سنة ٢٧٥ عن أربعة وسبعين عاماً بكاه كثير من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن بسّام ، وقد أنشدنا في غير هذا الموضع مرثيته له ، وهي مرثية جيدة .

أبو بكر الصولي^(١)

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولي من بيت كتابة وشعر ، تقلد أصحابه كثيراً من الأعمال السلطانية ، مثل عمه إبراهيم بن العباس ، وكان أكبر كاتب في دواوين المتوكل . وهما من أسرة صول تكين أحد أمراء جرجان . كان قد ظفر به يزيد بن المهلب في بعض حروبه وهو وال على خراسان للحجاج ، فأسلم على يديه ، ولزمه وأصبح من رفاقه ، حتى إذا ثار يزيد على بني أمية في أوائل القرن الثاني للهجرة ثار معه عليهم محارباً في صفوفه ، ودارت عليهما معاً الدوائر فسقطا قتيلين في ميادين المعارك . وقد تتلمذ أبو بكر لعلماء عصره في بغداد : أبي داود السجستاني وثعلب والمبرد ، وكذلك لأصحاب الأخبار والمؤرخين ولأصحاب الهندسة ، وتدل صلته بالأخيرين على معرفته بعلوم الأوائل . وكان يُحسِّن لُعبة الشطرنج حتى قالوا إنه كان أكبر حاذق لها في زمنه . وأكْبَّ على معارف عصره إكباباً منقطع النظر ، وجعله هذا الإكباب يُعْنَى بجمع الكتب ، وما زال يجمعها حتى كَوَّن لنفسه مكتبة ضخمة تحدث عنها معاصروه ، كما أسلفنا ، وراعتهم فيها جلود الكتب المختلفة الألوان ، إذ جعل لكل صف من الكتب لوناً ، فصنف أحمر وصف أخضر إلى غير ذلك . وفتحت له معارفه الواسعة ومهارته في لعبة الشطرنج أبواب الخلفاء منذ عهد المعتضد ، وهو مع ذلك يغدو عليهم ويروح بمدائحهم ، وهم ينثرون عليه أموالهم ، مما جعله يعيش معيشة رَغْدَة . وكلّفه المقتدر تعليم ولديه الراضى وهرون ، فأحسن تعليمهما ، وخرّج أولهما شاعراً وأديباً لَسِيناً ، حتى إذا ولي الخلافة اتّخذَه نديمه ومستشاره . ويزورُ عنه الخليفة المتقي بعده فيترك بغداد إلى

(١) انظر في أخبار أبي بكر الصولي وأشعاره
الفهرست ص ٢٢١ وتاريخ بغداد ٣/ ٤٢٧
ومعجم الشعراء للرمزباني ص ٤٣١ وديوان
المعاني للعسكري (انظر الفهرست) وذيل زهر

الآداب ص ٢٤٥ ومعجم الأدباء ١٩/ ١٠٩
وفيات الأعيان والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٩٦
وله في كتابه أخبار الراضى والمتقى أشعار
كثيرة .

بجكم التركي حاكم واسط سنة ٣٢٩ ويتوفى المتقى سنة ٣٣٣ فيعود إلى بغداد وسرعان ما تحل به ضائقة ، فتركها إلى البصرة سنة ٣٣٥ حيث لبى نداء ربه ويقال بل إن الخليفة المستكنى عرف تشيعه لآل على بن أبى طالب فطلبه ، وفر منه إلى البصرة .

وقد صنع الصولى دواوين كثيرة لطائفة كبيرة من الشعراء المحدثين فى مقدمتهم أبو نواس وأبو تمام وابن الرومى وابن المعتز ، وصنف كتباً جليلة فى أخبار الخلفاء وسيرهم وأخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتّاب والرؤساء . ومن كتبه النفيسة كتابه « الأوراق » وقد نُشر منه ثلاثة أجزاء : جزء خاص بأخبار الشعراء المحدثين وجزء خاص بأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم وجزء خاص بالخليفين : الراضى والمتقى . ونُشر له مصنفه أدب الكتّاب وكتاب أخبار أبى تمام وهو فيه ينتصر له ضد خصومه ، ولعل فى ذلك ما يصور بصره بالشعر العباسى ، وأنه كان يقف فى دقة على أساليبه ومذاهبه ؛ إذ نبّه على أن أبا تمام صاحب مذهب جديد فى الشعر ولا مَن من يعيونه ببعض أبيات فاتة التوفيق فيها متناسين تحليله فى آفاق الشعر العليا التى تنقطع من دونها الرقاب .

وعلى هذا النحو كان أبو بكر الصولى شاعراً ناقداً عالماً ، وكان مثقفاً ثقافة واسعة بكل مواد المعرفة فى عصره . ولم يصل إلينا ديوانه ولكن وصلت طائفة من أشعاره التى كان يُنشدها الراضى فى حفلات القصر وفى المناسبات المختلفة دونها بنفسه فى أخباره ، كما وصلت إلينا مقطوعات متنوعة احتفظت بها الكتب الأدبية والتاريخية . وسقطت من يد الزمن مدائح فى المعتضد إلا بعض أبيات دالية ذكر المسعودى أنه أنشدها فى قصيدة مدحه بها ، وفيها يقول :

لَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَضِدُ بِحَرْ جُودٍ لَيْسَ يَعْدُوهُ أَحَدٌ

ولم يصل إلينا من مديحه للمكتنى سوى قصيدة واحدة ، وقد اضطر — كما يقول — إلى أن ينشدها المتقى حين استولى على مقاليد الخلافة ، وكان قد طُلب إليه أن ينشده عاجلاً قصيدة يهنئه فيها بالخلافة ، ويقول إنه وضع فيها كلمة المتقى بدلا من كلمة المكتنى ، وفيها يقول :

مددت على الإسلام أكنافَ نعمةٍ لأعطافها ظلُّ عليه ظليلٌ
ولولا بنو العباس عمُّ محمدٍ لأصبح نور الحق فيه خُمول
لكم جبلا الله اللذان اصطفاهما يقومان بالإسلام حين يميل
نبوته ثم الخلافة بعدها وما لهما حتى اللقاء حويل^(١)
وكلُّ ما في القصيدة من صياغة وخيال يدلُّ على أن الصول كان يتكلف هذا
المديح تكلِّمًا. حقًّا هو يبالغ فيه ويغلو على عادة شعراء الدعوة العباسية، ولكن نحس
أن الكلام يفقد الروح وأنه لا يصدر عن عاطفة حقيقية، وبالمثل ما رواه له عريب
في ذيل الطبرى من مديح للمقتدر، وحتى الراضى تلميذه الذى أغدق عليه عطاياه
حتى لكانما تحولت إلى نهر فياض نجد في مدائحه له نفس هذا الطراز المتكلف.
وكان لا يترك مناسبة من عيد أو نيروز أو فتح إلا أنشده فيها قصيدة، وقد تطول
طولا مسرفًا، ومع ذلك نفقد فيها الحرارة من مثل قوله يهنئه بانتصار جيوشه على
مردويج الثائر بأصبهان:

آنس الله بالخليفة مُلكاً مُوحِشَ الرَّبْعِ واهنَ التَّاسِيسِ
يانسيمَ الحياةَ أضحكت دهرًا كان لولاك دائمَ التَّعْبِيسِ
مردويجٌ بسيف حَظِّكَ مقتو لُ فَأَهْوَنُ بِذَاكَ مِنْ مَرْمُوسِ^(٢)
قَصَفَتُهُ رِياحُ أَيامِكَ الغَ رٌ فَأَحْمَدُنْ مِنْهُ نارَ المَجُوسِ
وتولَّتْ بِمَاتَمِ الدَّهْرِ أَيَا مٌ أَتَتْنَا تَجَرُّ ذَيْلَ العُرُوسِ

والتكلف واضح في الأبيات، والصور لا تقع في مكانها، فالخلافة كانت موحشة
وكانت واهنة، والخليفة نسيم الحياة، نسيم أضحك دهرًا كان عبوسًا قمطريرًا ومردويج
لم يهزمه أبطال الدولة وإنما هزمه الحظ ورياح دولة الراضى الغراء، وخلعت الأيام سواد
الحرز، وجاءت تجر ذيل الفرح. كلام متلاصق، وليس شعراً حسيباً نابضاً
بروح، وربما كانت خير قصائده فيه قصيدته الدالية التي أنشدها في مجلسه
لسنة ٣٢٧ وفيها يقول:

(٢) مرموس: من الرمس وهو القبر.

(١) حويل: تحول.

خليفة أكمِلَتْ فضائله ففرَّعه طيب ومَحْتَدُهُ
 تعبَّد المجد فهو يملكه طارفه عنده ومُتَلَدُهُ
 قد رضى الراضى الإله لإصـ لاح زمان سواه مفسده
 فهو بتفويضه الأمور إلى الله بحسن التوفيق يعضده

ولا يخفى ما فى هذه الأبيات من تكلف يتضح فى بناء الشطر الثانى من البيت الأول على سابقه ، كما يتضح فى جعل المجد عبداً للممدوح وكأنه استدله ، والجنانس بين رضى والراضى شديد التكلف ، وكلمة سواه نائية فى مكانها غير مستقرة والصياغة فى البيت الرابع تتنافر أجزاءها تنافراً شديداً . ومن هذا الطراز نفسه عزائه للراضى فى أخيه هرون ، وهو يستدله على هذا النمط :

تَعَزَّى يا خير الورى عن أخٍ لم يَشَبِ الإخلاص باللبس
 كان صديقاً وافرأ ودّه صداقة الأنفس والجَنَسِ
 تَعَزَّى عنه بنى الهدى محمد إذ حلَّ فى الرُّمَسِ

والقصيدة مزيج من التندب والتأين والعزاء ، مع أنه افتتحها بطلب التعزى والتسلى ، فكان ينبغى أن يقصرها على العزاء لا أن يندب فى هرون إخلاصه وصداقته لأخيه كما فى هذه الأبيات ، ولا يحاول أن يذكر همته وسؤدده مؤبداً له كما فى أبيات تالية . ونحس نبواً شديداً فى البيت الثانى إذ يذكر عن هرون أنه كان وافر الود ، وكان يحسن أن يغير كلمة وافر بكلمة أخرى مثل صادق ، وأيضاً فإنه جعل صداقته لأخيه صداقة جنس . والتعبير عن الرسول عليه السلام بأنه حَلَّ فى الرُّمَسِ فى الرمس خلو من رهافة الحس أو من الحس الأدبى الدقيق . وقد يكون مصدر التكلف فى العزاء والمديح جميعاً أنه كان موالياً للعلويين كما قال بعض من ترجموا له ، وكأن هذا الرثاء والمديح لم يكونا يتصلان بروحه وقلبه ، فقلبه وروحه مع آل أبى طالب ، ولسانه وحده مع العباسيين ومع ما يصدقون عليه من صلوات ثرة . وقد يشهد لذلك أننا إذا تركنا مدائحه لبنى العباس ونظرنا فيما روى له من غزل لقيستنا له مقطوعات كثيرة بديعة من مثل قوله :

أَحْبَبْتُ مِنْ أَجَلِهِ مَنْ كَانَ يَشْبَهُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْمَعشُوقِ مَعشُوقٌ
 حَتَّى حَكَيْتُ بِجَسْمِي مَا بِمَقْلَتِهِ كَأَنَّ سَقَمِي مِنَ جَفْنِيهِ مَسْرُوقٌ
 وَقَوَاهُ يَصِفُ الدَّمُوعَ فِي سَاعَةِ الْوَدَاعِ ، وَهِيَ تَسْقُطُ بِيضَاءً سَقُوطًا مُتَابِعًا عَلَى
 خُدُودِ حُمْرَاءِ حَمْرَةِ الْوَرْدِ فِي الرَّبِيعِ :

لَوْ كُنْتُ يَوْمَ الْوَدَاعِ حَاضِرًا وَهَنٌ يَطْفِئُ لَوْعَةَ الْوَجْدِ
 لَمْ تَرَ إِلَّا الدَّمُوعَ جَارِيَةً تَسْقُطُ مِنْ مَقْلَةٍ عَلَى خَدٍّ
 كَأَنَّ تِلْكَ الدَّمُوعَ قَطْرَ نَدَى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجِسٍ عَلَى وَرْدٍ
 وَكَانَ يَنْفِذُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الصُّورِ النَّادِرَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي تَنْبِئُ عَنْ
 شَاعِرِيَّةٍ جَيِّدَةٍ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ فِي بَيَانِ إِعْجَابِهِ بِغَنَاءِ إِحْدَى الْقَيَّانِ :
 وَغَنَاءٌ أَزَقُّ مِنْ دَمْعَةِ الصَّ وَشَكْوَى الْمُتِمِّ الْمَهْجُورِ
 وَهُوَ فِي وَصْفِ أَرْمَدٍ وَمَحَاوَلَةِ تَعْلِيلِ رَمْدِهِ بَعْلَةً غَرِيبَةً لَا تَقَعُ إِلَّا فِي عَقْلِ وَاهِمٍ بَعِيدٍ
 الْخِيَالِ بَيِّنَانٍ كَانَ الْقَدَمَاءُ يُعْجِبُونَ بِهِمَا إِعْجَابًا شَدِيدًا إِذْ يَقُولُ :

يَكْسِرُ لِي طَرَفًا بِهِ حَمْرَةٌ قَدْ خَلَطَ النَّرْجِسُ فِي وَرْدِهِ
 مَا أَحْمَرَتِ الْعَيْنَ وَلَكِنَّهُ يَكْحَلُهَا مِنْ وَرْدَتِي خَدَّهُ
 وَكَأَنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ وَمَا وَرَاءَهَا مِنْ أَبْيَاتٍ فِي الْحُمْرِ لَمْ نَرَوْهَا كَانَتْ تَصْلُبُ
 عَنْ نَفْسِهِ ، مِمَّا جَعَلَ صَيَاغَتَهَا سَوِيَّةً وَأَخِيلَتَهَا بَدِيعَةً بَعِيدَةً الْغَرَابَةِ فِي بَعْضِ
 الْأَحْيَانِ . وَهُوَ بِجَانِبِ ذَلِكَ حِكْمٌ يَصُورُ فِيهَا عِبَرَةَ الدَّهْرِ وَمَوَاعِظَهُ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :
 يَا بَابَانِيَا وَالْدَّهْرُ فِي نَقْضِهِ
 يَلْهُو وَيَأْيِدِي الْمَوْتَ أَخَاذَةً يَا رَاكِضًا يَسْرِعُ فِي رَكْضِهِ
 مِنْ طَوْلِهِ طَوْرًا وَمِنْ عَرْضِهِ

فَالْإِنْسَانُ يَسْبِي . وَلَا يَعْرِفُ أَنَّ دَارَهُ سَتَنْقُضُ بَعْدَ أَيَّامٍ ، بَلْ هُوَ نَفْسُهُ
 سَيَنْقُضُهُ الدَّهْرُ وَيَحِيلُهُ ضَعْفًا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ، يُوْهِنُ عَظْمَهُ وَيَنْحُلُ جَسْمَهُ ، وَيَحْنِي

ظهره ويأخذ من طوله ومن عرضه ، حتى يصبح أنقاضاً خالصة ، وكأنما الدنيا أضغاثُ أحلام . والصولي في كل هذه المقطوعات الأخيرة شاعر بارع ، لا تنقصه جزالة الصياغة ولا روعة الخيال .

٢

شعراء الشيعة

ذكرنا فيما أسلفنا أن الخوارج خمدت دعوتهم وحروبهم منذ العصر العباسي الأول ، وعمَّ هذا الحمود في هذا العصر التالى بحيث لم يعودوا يكوّنون حزب معارضة حقيقياً للدولة العباسية ، وقد نهض بتلك المعارضة فى أحد صورها حزب الشيعة فكان كثير من العلويين يخرجون ويعلنون خروجهم ويشهرون هم وأنصارهم سيوفهم فى وجه الدولة ، وكانت تلقاهم بجيوشها وقلما كُتِب لهم النصر ، ولكن ما كانت حرب لهم تكاد تخمد حتى تنشب حرب أخرى ويشتد أوارها وبذلك ظلت المعارك بينهم وبين الدولة محتدمة طوال العصر . وتنبّه لذلك المتوكل ، فرأى أن يقف زياره الشيعة لقبر الحسين وبكاءهم عنده وتفجعهم عليه ، ومضى يأخذهم بغير قليل من الشدة ، محرّضاً شعراءه على النيل منهم ومن آل على عامة ، وأمر - فيما أمر - بحبس الطالبين فى سامراء^(١) وأخذ يُنزل بهم نكالا شديداً ، ومع ذلك لم يسلم عهده من خروج نفر منهم فى الحجاز على نحو ما سئرى عما قليل فى حديثنا عن محمد بن صالح العلوى .

ولا بد أن نلاحظ أن الكوفة كانت لا تزال أكبر مركز للشيعة وأن مذاهبهم التى عرفناها فى العصر العباسي الأول كانت لا تزال حية ، فكان كثيرون يؤمنون بالنظرية الزيدية ، وأكثر منهم من كان يؤمن بالنظرية الإمامية الاثنى عشرية ، وأخذت النظرية الإسماعيلية تجد لها أنصاراً ، واستغلها القرامطة فى ثورتهم ، دون أن تصبح عقيدة حقيقية لهم ، وبذلك كان ينبغى أن ننحيه عن الشيعة . وملاحظة ثانية هى أن المذهب الشيعي الذى غلب على العراق حينئذ كان مذهب الإمامية ، وكان يجعل

(١) أغاني (سأى) ١٩ / ١٤١ .

التقية أصلاً من أصوله، فكان يعمل سراً وقلماً عمل جهرًا ، وكان يأذن لأنصاره أن يمدحوا العباسيين تقيّةً ، ومضى كثيرون منهم يمدحونهم طلباً لما في أيديهم من أموال ، وهم يُسِرُّون لهم كرهًا وحسَنًا ، ومن هنا كُنا كثيرًا ما نقرأ عن شاعر أنه مدح هذا الخليفة أو ذاك ويُقال إنه كان يتشيع . وهم أكثر من أن نسميهم أو نحصيهم . وملاحظة ثالثة هي أنه قيل شعر شيعة كثير في العصر ، وهو موزع بين بعض آل البيت وبين أنصارهم ممن يَشُدُّون الشعر وينظمونه ، ومن أهم الشعراء العلويين حينئذ محمد بن صالح العلوى الأنف ذكره والحمصاني وسنخصه هو الآخر بترجمة قصيرة ، ومنهم محمد^(١) بن على بن عبد الله أحد أحفاد العباس بن على بن أبى طالب ، وكان في أيام المتوكل ، وهو يكثر من الافتخار بأبائه وبنسبه الطاهر إلى الرسول الكريم ، ويردّد في أشعاره نظرية بينه العلوى في الخلافة وأن الرسول عليه السلام أوصى بها إلى جده على حين نزل بغدير خمّ إذ قال له : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى » وإلى ذلك يشير بقوله :

وجدى وزيرُ المصطفى وابن عمّه على شهابُ الحرب في كل ملحمٍ
وأول من صَلَّى ووحد ربّه وأفضل زوّار الحطيم وزمزمٍ
وصاحب يوم الدّوح إذ قام أحمدٌ فننادى برفع الصوت لا يتهمهم
جعلتك منى يا على بمنزلٍ كهرون من موسى النجى المكلم

وما فصل إلى سنة ٢٥٠ في عصر المستعين حتى تثور ثائرة الشعراء الشيعيين ، وذلك أنه كان قد أعلن الثورة في الكوفة يحيى بن عمر الطالبي ، وكان قد تورّع عن أخذ أموال الناس ظلمًا وأمر بحرق الدماء ، وكان ورعًا زاهدًا ناسكًا ، فتبعته ألوف ، ونشب القتال بينه وبين جيوش محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وجنوبى العراق . وتمزقت جموعه ، وخرّ قتيلا ، وحُمِل رأسه إلى بغداد . وضجّ الناس لمقتله وصلّب رأسه ، ويروى أنه لما جلس محمد بن عبد الله بن طاهر للشعراء يستقبل تهانيمهم بالفتح دخل عليه أبو هاشم الجعفرى ، وقال له : أيها الأمير إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه حياً لعزّى به ، فلم يجبه

(١) انظر فيه معجم الشعراء ص ٣٨١ .

الأمير ، فولّى وجهه خارجاً ، وهو يقول^(١) :

إن وثراً يكون طالبه إلا هـ لوتر نجأحه بالحرى

ونصب له الشيعة مأتماً كبيراً ناح فيه الشعراء وبكو اطويلاً ، ومرت بنا في غير هذا الموضع برثية ابن الرومي له ، وهي صرخة من أعماقه تناول فيها العباسيين تناولاً ذميصاً ، واصفياً لهم بالظلم والطغيان هم وولاتهم ، ومنذراً برجوع الحق إلى نصابه ، بل متوعداً بجيش يأخذ بثأر يحيى ويدمر خصومه تدميراً . وكثر رثاؤه وندبه والنواح عليه بمثل قول أحمد بن أبي طاهر^(٢) :

سلامٌ على الإسلام فهو مودعٌ إذا ما مضى آل النبي فودعوا
فقدنا العلا والمجد عند افتقادهم وأضحت عروش المكرمات تَضَعُضُ
لقد أفقرت دار النبي محمدٍ من الدين والإسلام فالدارُ بَلَقُعُ
وقُتِلَ آلُ المصطفى في خلالها وبُدِدَ شَمْلُ منهم ليس يُجْمَعُ

وسرعان ما يشور في نفس السَنَةِ بطبرستان الحسن بن زيد العلوي سَلِيلِ
الحسن بن علي بن أبي طالب ، ويغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب ومعارك
كثيرة ، ويظل مسيطراً عليها إلى أن يلي نداء ربه لسنة ٢٧٠ وطبيعي أن يصبح
مقصداً للشعراء ، وأن يتغنى غير شاعر باسمه في المناسبات المختلفة ، ونجد شاعراً من
جرجان يسمى محمد بن إبراهيم يهنئه حين افتصده بقوله^(٣) :

قد رأينا مجالساً عطراتٍ هِيَّتْ عندنا لفَصْدِ الإمام
إنما غيبَ الطبيبُ شبا المذْ ضَعُ عندى في مهجة الإسلام
سُرَّتِ الأرض حين صُبَّ عليها دُمُ خَيْرِ الْوَرَى وأعلى الأنام

والتزعة الشيعية واضحة في الأبيات . وكان من الشعراء حينئذ من يستر تشيعه
ماكراً برجال الدولة العباسية ، إذ ينزل عليهم بسياط هجائه ، لا لشيء إلا لأنهم

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧

(١) الطبري ٩ / ٢٧٠ والمروج ٤ / ٦٤ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٦٤ .

يخاضمون آل علي ، وربما اتخذ لذلك وسائل مأكرة ، ومن اشتهر بهذه الطريقة أبو نعامه الدقيقي الكوفي ، إذ قال الرواة إنه استنفذ شعره في هجاء رجال الجيش العباسي ، يرميهم بالأبنة ، وصنع في قوَّادهم ورؤساء الدولة قصيدة مزدوجة سماها السنيَّة ، رماهم فيها بالقبايح الشنيعة . وما زال هذا شأنه ، حتى تصادف أن دخل بغداد مفلح القائد التركي في طريقه إلى حرب صاحب الزنج ، فدلَّه عليه قوم من أهل بغداد ، وقالوا إنه يتشيع وشهدوا عليه بالرَّفْض ، فضربه مفلح بالسياط حتى تلفت نفسه ومات لسنة ٢٦٠ .

وكان قد خَلَفَ الحسن بن زيد على طبرستان حين توفي أخوه محمد ، واستقام أمره فيها وعظم شأنه ، فدخل ديار الديلم ودانت له ، حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ جَهَّزَ جيوشاً كثيرة من الديلم وغيرهم لغزو جرجان ، فلقبته جيوش إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب خراسان من قبل العباسيين ، ودارت عليه الدوائر وأُتْخِنَ بالبحر وح ، وتوفي ، فدفن بباب جُرجان ، يقول المسعودي : وقبره هناك معظم إلى اليوم . ويبدو أنه كانت له بطانة كبيرة من الشعراء تنصر دعوته من مثل محمد بن حبيب الضبيِّ القائل فيه ^(١) :

إن ابن زيد كل يوم زائدُ علا علواً لا يساويه أحدُ
لو صال بالطود إذن أدله أو زجر البحر إذن صار زبدُ

وأهم من هذا الشاعر شاعر يسمى أبا المقاتل نصر بن نصير الحُلُواني ، نراه يغلو في مدحِه ، حتى لنصبح وكأننا بإزاء بعض غلاة الشيعة وما يحيطون به أُنْمَتهم من هالة قدسية ترفعهم عن البشر درجات ، وفيها يقول ^(٢) :

لا تقل بُشْرَى وقلْ لي بُشْرِيانِ غُرَّة الداعي ويوم المهرجان
ابن زيد مالِكُ رِقِّ الزمانِ بالعطايا والمنايا والأماني
خُلِقَتْ كَفاهُ مَوْتاً وحياءُ وحوثُ أخلاقه كُنْه الجنانِ
مختفٍ فكرته في كل شيءٍ فهو في كل محلٍّ ومكان

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٥١ .

يتنأى لفظنا عنه ولكن هو بالأوصاف في الأذهان دان
كافر بالله جهراً والمثاني كل من قال : له في الخلق ثان

ويبدو أن محمد بن زيد كان قد خطا في الدعوة الشيعية خطوات فسمي نفسه الداعي ، وأخذ يوحى إلى الشعراء أن يُسبغوا عليه صفات إلهية ، فهو ظاهر في العيان ، وهو مختف في كل مكان ، وهو لا تحدّه الألفاظ ، وإنما تقرّبه الأوصاف وليس له ند ولا شبيه ، وكافر بالله والمثاني السبع أو القرآن من يقول له في الخلق ثان . ونحن نعرض ثلاثة من شعراء الشيعة منهم اثنان علويان والثالث من الأنصار المخلصين ، وهم محمد بن صالح العلوي والحيماني والمفجّع البصري .

محمد بن صالح العلوي (١)

من فتیان البيت العلوي وشجعانه وشعرائه، امتعض لبيته حين أنزل به المتوكل ما أنزل من سخطة وغضبه ، وما كن من هدمه لقبر الحسين ومنعه الناس من زيارة قبره وقبر أبيه على بالنجف . وكان موطنه سُوَيْقَةَ في بادية الحجاز كان يتزلها مع أسرته من الحسينيين أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب ، فعزم على الخروج وأخذ يجمع الناس لذلك ، وتصادف أن حجّ بالناس في نفس السنة أبو الساج أحد قواد المتوكل الترك فسمع بنيته وأنه لبس البياض مع كثير من أنصاره ، وكأن البياض كان حينئذ يتخذ شعاراً للعلويين ضد العباسيين المسوّدین أو الذين يتخذون السواد شعاراً لهم . وفاجأه هو وأنصاره أبو الساج فأخذهم وقبضهم وقتل نفرًا منهم وأخرب سويقة وحرّق منازلهم بها واستأصل كثيراً من نخلها وأثر فيها آثاراً سيئة ، وحمل محمد بن صالح فيمن حمل منهم إلى سامراء ، فحبس ثلاث سنوات ، ثم عفا عنه المتوكل بسبب شعره وبفضل وساطة وزيره الفتح بن خاقان له ، وذلك أنه نظم أبياتاً جيدة يعزى فيها نفسه عن حبسه ، ويتجمل بالصبر قائلاً :

الطالبيين للأصبهاني (طبعة الحلبي) ص ٦٠٠
ومجم الشعراء ص ٣٨٠ .

(١) انظر في محمد بن صالح الأغاني (طبع دار الكتب المصرية) ٣٦١/١٦ ومقاتل

طَرِبَ الفؤادُ وعاودَتْ أحرزُهُ وتشعبَتْ شُعباً به أشجانُهُ
وبدا له من بعد ما اندمل الهوى برقٌ نالَتْ موهناً لمعانُهُ
فدنا لينظر كيف لاح فلم يُطقْ نظراً إليه وردَهُ سجانُهُ
فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضاوعُهُ والماء ما سحَتْ به أجفانُهُ
ثم استعاذ من القبيح وردَهُ نحو العزاء عن الصبا إيقانُهُ
وبدا له أن الذي قد ناله ما كان قدره له ديانُهُ

والشعر جزل مصقول ، والشاعر يبت في أوائله حنيناً لأيامه الماضية وكأنها عهود هوى وحب سقطت منه ، وينظر إلى البرق متطلعاً لليوم الذي تَرَدُّ إليه فيه حريته ، فيعنف به السجان ، ويحس كأن نار الوجد اندلعت في ضلوعه ظمئاً إلى أهله وموطنه . وتسحُّ الدموع وتنهل لا تجف ، ويرده إيمانه و يقينه ، فيستسلم للقضاء محزون الفؤاد شجيئاً . وتشيع الأبيات وتصل إلى سمع الفتى بن خاقان ومغنى المتوكل بنان ، ويصنع بنان فيها صوتاً يلحنه أمام المتوكل فيستحسن الشعر والالحن ويسأل عن قائله ، فيلذَّ كسرُ له ، ويكلمه الفتى في أمره وما يزال يرق قلبه حتى يعفو عنه ، غير أنه يشترط أن يظل عند الفتى وفي يده وألا يبرح سامراً حتى لا تحدثه نفسه بالعودة إلى الثورة . وتَرَدُّ إليه حريته فيمدح المتوكل ويغمدق عليه من صلاته ، كما يمدح المنتصر . ونراه يبالي في التقية من المتوكل فلا يكتفى بمدح له عام ، بل يسوق الدلائل والبرهان على أن العباسيين أحق من العلويين بالخلافة ، يقول :

يابنَ الخلائف والذين بهديهم ظهر الوفاء وبانَ غدرُ الغادرِ
وابنَ الذين حووا ثراثَ محمدٍ دون الأقارب بالنصيب الوافرِ
نطق الكتابُ لكم بذاك مصدقاً ومضتْ به سُننُ النبي الطاهرِ

وهو يشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى ذكره في سورة الأنفال : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) يريد أن العباسيين مقدمون في وراثة الخلافة على أبناء بنت الرسول عليه السلام ، لأن العم يتقدمهم في الميراث كما تنص

على ذلك شريعة الإسلام في القرآن الكريم ، وكما مضت بذلك السنة النبوية الطاهرة . ولم يتورط فيما كان يتورط فيه شعراء بغداد من التعلق بالجواري والإماء ، فقد كان يَكْلَفُ بزوجه وحدها ، وكانت تَحْتَلُّ قلبه بجمالها ، ويُشَغَفُ بها شغفًا شديدًا وفيها يقول :

لعمري حمدونة إني بها لمغرَّم القلب طويلُ السَّقامِ
مجاوِزٌ للقدر في حبها مباينٌ فيها لأهل الملامِ
جشمتني ذلك وجدى بها وفَضَّلُها بين النساءِ الوِسامِ
زَيْنُها الله وما شأها وأعطيتْ مُنِيَّتَها من تمامِ

وكان جميل المحضر حلو الحديث رقيق الشائل ، فانهقدت الصداقة بينه وبين نفر من الأدباء ، في مقدمتهم سعيد بن حميد أحد كتّاب الديوان المجيدين ومِمَّنْ كانوا يحسنون صنع الشعر بجانب إحسانهم لفن الكتابة ، وكان محمد بن صالح يمنحه ودًا حقيقياً وفيه يقول :

أصاحبُ من صاحبت ثُمْتُ أنثى إليك أبا عثمانَ عطشانَ صاديا
وكنا إذا جِئناكَ لم نَبْغِ مشرباً سواكَ وروينا العظام الصَّواديا

وتصويره لمودته له وأن عطشه للقائه يبلغ منه عظامه تصوير جيد ، وكان إبراهيم ابن المدبر زميل سعيد في الدواوين يؤليه فضلاً كثيراً ، وانهقدت بينهما صداقة وثيقة حتى كانا يُمَضِيان كثيراً من الليالي والأيام معاً لا يفترقان ، وله رائية طويلة في مديحه ، وفيها يقول :

أخْ واساك في كَلْبِ الليلي وقد خَذَل الأَقاربُ والنَّصيرُ
فإن تشكر فقد أولى جَمِيلاً وإن تكفر فإنك للكفورُ

وله مقطوعة يصور فيها لجواري يندبن ويلطمن عند قبر لبعض ولد المتوكل ، وهو فيها يتحدث عن فتور عيونهن وجمالها ، ويخال كأنما سينفخ هذا الجمالُ

الفاتن في العظام الهامدات ، فتعود مرة ثانية إلى الحياة الدنيا ، يقول :

رَأَيْتُ بِسَامِرًا صَبِيحَةً جُمُعَةٍ عَيُونًا يَرُوقُ النَّاطِرِينَ فَتُورُهَا
تَزُورُ الْعِظَامَ الْبَالِيَاتِ لَدَى الثَّرَى تَجَاوَزَ عَنْ تِلْكَ الْعِظَامِ غُفُورُهَا
فَلَوْلَا قَضَاءُ اللَّهِ أَنْ تَعْمَرَ الثَّرَى إِلَى أَنْ يَنَادَى يَوْمَ يُنْفَخُ صُورُهَا
لَقُلْتُ عَسَاهَا أَنْ تَعِيشَ وَأَنْهَا سَتُنَشَّرُ مِنْ جَرًّا عَيُونِ تَزُورُهَا
ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية محمد بن صالح العلوي الفذة ، ويُظِلُّه
عصر المنتصر فيصيبه فيه جُذْرِيٌّ ويَلْبِي نداء ربه ، ويرثيه غير صديق بأكبر
خِصَالِهِ الحميدة .

الْحِمَاةُ الْعَلَوِيَّةُ

سُمِّيَ الْحِمَاةُ نسبة إلى حي بالكوفة نشأ وعاش فيه ؛ وهو علي بن محمد بن
جعفر العلوي ، خرج أبوه محمد الملقب بالديباجة في المدينة لأوائل عصر المأمون
قبل تحوله من خراسان إلى بغداد ، غير أن ثورته ضد العباسيين لم تنجح ، وحُمل
إلى بغداد ، ونُفي منها إلى خراسان ، فنزل بساحة المأمون هناك ، وسرعان ما وافاه
الموت ويقال إنه لما حمل الرجال نعشه دخل المأمون بين عموديه ، فاشترك في
حَمَلِهِ حتى نزوله في لحدّه ، وكان مما قال : هذه رَحِمٌ "مَجْفُوءَةٌ منذ مائتي سنة .

وانتقلت أسرة الديباجة بعده إلى الكوفة ، وبها نشأ ابنه علي ، وعُتِبَتِ الأم
والأسرة بثقيفه ، فلم يُحَسِّنْ صنع الشعر فحسب ، بل أحسن صنوفاً من الآداب
وعُلُومِ الشريعة ، مما جعل العلويين في تلك البلدة يختارونه تقييهم ومدرسهم
ولسانهم ، كما يقول المسعودي . ونُصِيَ إلى المتوكل أن في داره سلاحاً وأن الشيعة
يُجْتَمِعُونَ عنده ، وقيعة فيه من بعض حساده ، فوجه إليه جنداً اقتحموا عليه داره
فجأة ، فوجدوه يتعبّد ربه في غرفة مغلقة مرتدياً ثوباً بسيطاً من الصوف ،

ص ٢٣٧ والمختار من شعر بشار الخالدين
ص ١٦ ، ٢٥١ وديوان المغان ١/١٠٩ ،
٦٥٨/٢

(١) انظر في الحماني وأشعاره مروج الذهب
٢٩/٤ ، ٦٥ ومقاتل الطالبين ص ٦٦٢
وكتاب الزهرة نشر نيكل طبع بيروت سنة
١٩٣٢ (انظر الفهرس) وكتاب الديارات

ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى ، وهو يتلو القرآن مترنماً بآيه . فحملوه إلى المتوكل ووصفوا له ما يعيش فيه من شظف ، فرقاً له ، وسأله : ما يقول آل بيتك في العباس بن عبد المطلب (جد العباسيين) ، فأجابه بقوله : وما يقول آل بيتي يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعة نبيه على خلقه وافترض طاعته على نبيه ؟ ولأن قلب المتوكل له فأمر بإعطائه أربعة آلاف دينار ، وقيل بل مائة ألف درهم . ولم يُردِ الحماني في إجابته ظاهرها من طاعة العباس على نبيه كما يتضح في الشطر الثاني من الجواب ، وإنما أراد طاعة الله على نبيه .

ومرَّ بنا أن الشعراء أكثروا في عصر المتوكل من ذمّ العلويين لإرضاء له ، وكان من أكثرهم قنّداً في علي وآله علي بن الجهم وكان ينتسب إلى بني سامة بن لؤي القرشيين ، واقتخر مراراً بهذا النسب في أشعاره ، وكان طبيعياً أن لا يسكت الحماني على هذا القنّح ، وخاصة أنه تتداوله الألسنة وتعمل بغداد على نشره ، فطعن علي بن الجهم طعنة بطعنات ، ولكن لا بالقدر في خلقه وعرضه على عادة الشعراء في عصره ، وإنما بالقدر في نسبه إلى سامة ، فهو ليس من أحفاده ، وبالتالي ليس قرشياً ولا فيه من القرشية شيء يقول :

وسامةٌ مِنّا فأما بنوه فأمرهم عندنا مظلم
أناسٌ أتونا بأنسابهم خرافة مضطجع يحلم

وعرف علي بن الجهم له فضله وحقه وحق أسرته العلوية ، فلم ينبس ببنت شفة واجداً عليه ولا هاجياً ، وإنما اكتفى بأبيات ينوّه فيها بفضله ، ويعترف له فيها بحقه وحقوق بيته .

وقد حزن الحماني حزناً شديداً على ابن عمه يحيى بن عمر حين خرج لعهد المستعين داعياً لنفسه بالخلافة ، وقُتل دون أمنيته ، وحدث أن الحسن بن إسماعيل قائد الجيش الذي نكّل به دخل الكوفة عقب انتصاره مهتداً متوعداً ، ولم يمض الحماني للسلام عليه ، وكان الوحيد الذي تخلف من العلويين عن لقائه ، ولاحظ ذلك الحسن بن إسماعيل ، فبعث إليه بجماعة أحضره حتى إذا دخل مجلسه أظهر شجاعة

وجسداً وأنه لا يخشى سطوة القائد ، ولم يلبث أن أنشده :

قتلت أعزَّ مَنْ ركب المطايا وجئتكَ أَسْتَلِينَكِ في الكلامِ
وعزَّ عَلَى أَنْ أَلْقَاكَ إِلَّا وفيما بيننا حَدُّ الْحَسَامِ

وهو موقف كريم إذ لم يتملق القائد كما كان يظن ولا داراه ، بل جاهره بما في نفسه دون خوف أو وجل . وله مرث كثيرة في يحيى ، يبكيه فيها ويندبه ، ويصور أنه مات موتاً كريماً ، موت البطل الشجاع الذى لا يرهب الموت بل يلقاه في قوة وصلابة مهما ادهمت الخطوب من حوله ، ومهما أظلمت الدنيا في عينيه ، حتى لتنهول بطولته خصومه ، وحتى ليطلبون لقبه السُّقْيَا وله الرحمة ، يقول :

فإن يَكُ يحيى أدرك الحتفُ يومه فما مات حتى مات وهو كريم
وما مات حتى قال طلابُ روحه سقى الله يحيى إنه لصميم

ويصور في مرثيه له مأساة البيت العلوى وأن أفراداه دائماً بين قتيل وجريح . وللحيماني مرث كثيرة - بجانب مرثيه لابن عمه يحيى - في أهله ، وفي أخيه لأمه إسماعيل وهو لا يرث فيه الأخ والرحم القريبة فقط ، بل أيضاً يرثى الصديق شقيق النفس والروح ، ويتفجع عليه تفجعاً شديداً بمثل قوله :

هذا ابن أمى عديل الروح في جسدى شقَّ الزمانُ به قلبي إلى كبدى
مَنْ لى مثلك ياروحَ الحياة ويا معنى يدى التى شلَّتْ من العُضْدِ
قد ذُقْتُ أنواعَ تُكَلٍّ أَنْتَ أبلغها على القلوب وأخناها على الجِلْدِ
فاليوم لم يبق شيء أستريح له إلا تفتَّتْ أحشائى من الكمدِ
قل للردى لا يغادرُ بعده أحداً وللمنية مَنْ أَحْبَبْتَ فاعتمدى
إن السرور تقضى ، بعد فُرْقته وآذن العيشُ بالتكدير والنكدِ

والمرثية مؤثرة وهى سيل من الدموع والزفرات والأنين الموجع . وللحيماني

غزليات كثيرة تتداولها بعض كتب الأدب وهي تنمُّ على شعور رقيق وخيال خصب من مثل قوله :

مَنْ أَرْتَجَى يَوْمًا شِفَاءً مِنَ الضَّنَا إِذَا كَانَ جَانِيهِ عَلَى طَبِيبِي
وله فخر يتحدث فيه عن آبائه . ويصوِّر سمو نفسه وارتفاعها عن النقائص ،
كما يصور كبر همته وأنها ملء قلبه بل أكبر من قلبه ، يقول :

قَلْبِي نَظِيرُ الْجَبَلِ الصَّعْبِ وَهَمَّتِي أَكْبَرُ مِنْ قَلْبِي
فَاسْتَخِرِ اللَّهَ وَخُذْ مُرْهَفًا وَافْتِكْ بِأَهْلِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ
وَلَا تَمُتْ إِنْ حَضَرَتْ مِيتَةٌ حَتَّى تَمِيتَ السَّيْفَ بِالضَّرْبِ

وهو ممن أكثروا من ذم الشيب وكراهته ، وصوِّر ذلك في أشعار كثيرة كأن
نراه يكره الشيب ويكره مفارقتها لأنها تعني فقدده للحياة ، وكأنه — على بغضه له —
يود أن لا يفارقه ، يقول :

بَكَى لِلشَّيْبِ ثُمَّ بَكَى عَلَيْهِ فَكَانَ أَعَزَّ فَقْدًا مِنْ شَبَابٍ
فَقُلْ لِلشَّيْبِ لَا تَبْرَحْ حَمِيدًا إِذَا نَادَى شَبَابُكَ بِالذَّهَابِ

وبجانب ذمه للشيب يأسى كثيراً على الشباب وأيام لهُو ومتاعه بالنظر إلى الغايات
فقد ضل ذلك منه ، أضله الشيب ، وهل من غانية تنظر إلى شيخ فان ، يقول :

لَقَدْ كُنْتُ تَمْلِكُ أَلْحَاطَهُنَّ فَصِرْنَ يُعِرْنَكَ لَحْظًا مُعَارًا
وَأَصْبَحْنَ أَعْقَبْنَ بَعْدَ الْوُدَادِ بَعَادًا وَبَعْدَ السَّكُونِ النَّفَارَا

وله وصف كثير في سُرَى الليل وفي اعتساف القلوات بالإبل والخيول نجد منه
مقتطفات في كتب الشعر ، ومن طريف نعته لطول الليل وسكونه وجثومه على الكون
دون أى حركة قوله :

كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ سَارَتْ نَهَارَهَا وَوَأَقَتْ عِشَاءَ وَهِيَ أَنْضَاءُ أَسْفَارِ
فَخِيَمْنَ حَتَّى تَسْتَرِيحَ رِكَابَهَا فَلَا فَلَكَ جَارٍ وَلَا كَوْكَبٌ سَارِ

وكان يكر من ذكر المنازل والديار ، وله قصيدة بديعة يتحدث فيها عن المنازل القريبة من الكوفة مثل آثار قَصْرِي الخَوْرَنْقِ والسَّدير ، وكانا من قصور الحيرة ، وديارات الأساقف المطلة على نهر الغدير هناك وما حول هذه المنازل من رياض نضرة ترف فيها الأنوار والأزهار ، ومن قوله في تلك القصيدة :

كم وقفة لك بالخور نقي لا توازي بالمواقف
بين الغدير إلى السدير ر إلى ديارات الأساقف
دمن كأن رياضها يكسبن أعلام المطارف
تلقى أوائلها أو آخرها بألوان الزخارف

وواضح من هذه الأشعار التي وقفنا عندها للحماني أنه كان شاعراً مجيداً ، فعنده كثير من الخواطر والأخيلة البارة ، وبالغ بعض الشيعة المتحمسين له فقالوا إنه كان أشعر شعراء قمرنه . وقد توفي سنة ٢٦٠ للهجرة .

المفجع البصري^(١)

هو أبو عبيد الله محمد بن أحمد الكاتب ، عالم أديب ، وتدل كلمة الثعالبي في البيعة أنه حين توفي ابن دريد العالم اللغوي الإخباري المشهور سنة ٣٢١ قام مقامه في التأليف والإملاء ، على أنه كان واسع الرواية وصاحب معرفة دقيقة باللغة والأخبار ، ويشهد لذلك أنه ترك مصنفات مختلفة مثل كتاب سماه كتاب الترجمان في الشعر ومعانيه . وفي كتاب الفهرست لابن النديم بيان كامل بأسماء مصنفاته . ويلفت النظر أنه شيعي وليس من أهل الكوفة بل من أهل البصرة ، ومعروف أن الكوفة كانت حتى القرن الثالث الهجري مركز التشيع وداره . بينما كانت البصرة بعيدة عن التشيع وأهله^(٢) ، وكأنما امتد تيار التشيع مع نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع إلى البصرة ، وأخذت تتحول إلى مركز من مراكزه .

بالوفيات (طبعة إستانبول) ١/ ١٢٩ .
(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فان
فلوتن) ص ٩

(١) انظر في المفجع وأخباره وأشعاره البيعة
للثعالبي (طبعة محي الدين عبد الحميد) ٢/ ٣٦٣
والفهرست ص ١٢٩ ومجمع الأدباء لياقوت
١٧/ ١٩٠ ومجمع الشعراء ص ٣٨٠ والوفاء .

ويبدو أن المفجع كان شيعياً إمامياً ، فقد شاع مذهب الإمامية في العراق من قديم ، ويقولون إن لقبه المفجع لزمه بيت قاله ، وأكبر الظن أنه لُقب بهذا اللقب إشارة إلى تفجعه الكثير على قتلى العلويين ، وكان — على ما يظهر — يكثر من مديح الهاشميين ، وخاصة أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب الزينبي الهاشمي البصري وفيه يقول :

للزینبی - إلى جلاله قدره - خلق كطعم الماء غير مزبد
وشهامة تقص الليث إذا سطا وندى يفرق كل بحر مزبد^(١)
يحتل بيتاً في ذؤابة هاشم طالت دعائه محل الفرق
بضياء سننه المكارم تقتدى وبجود راحته السحاب تهتدي
وله قصيدة طويلة يمدح فيها علياً - رضى الله عنه - سماها « ذات الأشباه »
إشارة إلى أثر مسند إلى أبي هريرة ذكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
قال وهو في محفل من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم في علمه ونوح في همه وإبراهيم
في خلقه وموسى في مناجاته وعيسى في سننه ومحمد في هديّيه وحلمه فانظروا إلى هذا
المقبل . فتناول الناس فإذا هو علي بن أبي طالب » . وعلى هدى هذا الأثر نظم
المفجع قصيدته مصوراً فيها مناقب علي وهي تطرد على هذا النمط :

أيها اللأثمى لحبى علياً قم ذميماً إلى الجحيم خزيّاً
أشبه الأنبياء كهلاً وزولاً وفطيماً وراضعاً وغدياً^(٢)
كان في علمه كآدم إذ عدّ م شرح الأسماء والمكنيا
وكنوح نجى من الهلك من سه ير في الفلك إذ علا الجوديا^(٣)
وحفّا في رضا الإله أباه واجتواه وعده أجنبياً
كاعتزال الخليل آزر في الله ه وهجرانه أباه ملياً^(٤)
ولو أنّ الوصى حاول مسّ الذّ جثم بالكف لم يجده قصياً

(٣) الجودي : جبل بشمال العراق .

(٤) آزر : أبو إبراهيم .

(١) نقص : تدق وتحطم .

(٢) الزول : الفتى .

وطبيعي أن تفقد القصيدة العذوبة لأنها إلى الشعر التعليمي أقرب منها إلى الشعر الغنائي وافر النغم والألحان . وليس معنى ذلك أن شعره جميعه يجرى على هذا المنوال فالأبيات السابقة في مديح الزينبي أسلوبها مستو وليس فيه استواء فقط ، بل أيضاً فيه جزالة ورصانة . ويقول الثعالبي إن شعره كثير الحلاوة يكاد يقطر منه ماء الظرف من مثل قوله :

زفراتٌ تعتادني عند ذكرا ك وذكراك ما تريم فؤادي
وسروري قد غاب عني مذعب ت فهل كننا على ميعاد
ليس لي مفزعٌ سوى عبرات من جفونٍ مكحولة بالسهاد
وبحسبي من المصائب أني في بلاد وأنتم في بلاد

وكان مثل أستاذه ابن دريد لا يجد بأساً في أن يُقبل أحياناً على الشراب، إذا صح ما روى عنه من احتساء الخمر، ونراه يصف مجلساً من مجالسها في ليلة من ليالي الأنس بها ، يقول :

أداروها وليلٌ اعتكارٌ فخلتُ الليل فاجأه النهارُ
فقلتُ لصاحبي والليل داجٍ ألاح الصُّبحُ أم بدتِ العُقارُ
فقال : هي العُقار تداولوها مُشعَّعةٌ يطير لها شرارُ
ولولا أنني أمتاح منها خلقتُ بأنّها في الكأس نارُ

وبين أشعاره مقطوعات في بعض الغلمان ، ومراً بنا ما قلناه من أن أكثر ما كان ينظمه الشعراء فيهم إنما كانوا ينظمونه دعابة وفكاهة على مجالس الخمر بقصد التندير والضحك ، ولذلك كان ينبغي ألا نصنع صنيع المستشرقين في تضخيمهم لهذه السوءة سواء عند المذجع البصري أو عند غيره . وراه « متر » ينظم قصيدة في الجامع الكبير بالبصرة ومن فيه من الغلمان قائلًا :

ألا يا جامع البَصْرَةِ لا خربك الله
وسقى صحنك المُرْن من الغيث فرواه

فكم ظبي من الإنس مليح فيك مرعاه
نصّبنا الفخّ بالعلم له فيك فصّدناه
وكم من طالبٍ للشّعة رٍ بالشعر طلبناه

فظن أنه وقع على وصمة كبرى ، وذهب يقول إن الشاعر يحكى كيف كان يغوى الصبيان في الجامع المذكور ويستنزل العاصي الصعب منهم^(١) . والدليل على أنه لم يكن خالص النية في حكمه أنه أنشد القصيدة وأسقط منها هذين البيتين :

ألا يا طالبَ الأمرِ دِ كُذِبُ ما ذكرناه
فلا يغررُك ما قلنا فما بالجِدِّ قلناه

فالمفجع إنما قال ما قال من هذه القصيدة كذباً وبهتاناً وعبثاً ودُعابة ، فكان يحسن بمتز أن لا يسوقها في مجال الحديث عن التولع بالغللمان ونصب الشباك لهم وأين ؟ في المساجد الطاهرة ، فالمفجع إنما أراد إلى أن يدفع سامعيه إلى الفكاهة والضحك العريض . ولم يطل به المقام في مكان أستاذه ابن دريد يُسملي ويحاضر الطلاب ، فما هي إلا ست سنوات بعد وفاة ابن دريد حتى لبى نداء ربه سنة ٣٢٧ للهجرة .

شعراء الثورات السياسية

لم تكن ثورات الشيعة بزعامة العلويين وحدها هي التي أقضت مضاجع الخلفاء في هذا العصر ، فقد اشتعلت بجانبها ثورات أخرى ، كان بعضها يزيّف لنفسه شعاراً علوياً حتى يجمع العامة في صفوفه وتحت لوائه . وكان من زعماء هذه الثورات من ينظم الشعر ، فهو ثائر من جهة ، وهو شاعر من جهة ثانية . وبهنا الوقوف

(١) انظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ١٣١ / ٢

على هؤلاء الشعراء الثوار ومن كان يُعينهم أحياناً بأشعاره من أنصارهم . ونلاحظ أن هؤلاء الشعراء من الأنصار لم تهتم بهم كتب التاريخ ، فهي دائماً تسوق ما قيل في انتصارات العباسيين على الثوار ولا تُعنى أى عناية بما قاله أصحاب هؤلاء الثوار في قليل ولا كثير .

ومن أوائل من ثاروا في العصر محمد بن البعيث لعهد المتوكل سنة ٢٣٤ وكان يحسن الشعر ، وسنعرض له في موضع آخر . وما نصل إلى رمضان لسنة ٢٥٥ للهجرة حتى يُشعل فارسي ثورة الزنج بالبصرة متزعمًا لها ، وفصلنا في الفصل الأول القول في هذه الثورة وكيف دوخت الدولة العباسية وعرضتها لكارثة عظيمة ، إذ استطاع أن يستثير الزنج ويجعلهم يستشعرون سُخطًا هائلًا على كبار الملاك الإقطاعيين الذين كانوا يُسخرونهم في كَسْح أرض البصرة وزرعها دون أى رحمة أو شفقة وبأجور زهيدة لا تكاد تحقق لهم غذاء ولا كساء . وتجمع حوالة الزنج واستحالوا إلى جيش لَجِيبٍ اجْتَسَحَ جنوبيَّ العراق وكاد يحتاج العراق كله في بعض الأوقات لولا أن تجرد لهم وأزعيمهم الموفق ولي عهد الخليفة المعتمد ، كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، وكان بطلاً مغواراً لا يُشَقُّ غباره ، وكانت الجيوش توالى في حرب هذا الثائر وأصحابه ، وكان يمزقها شر ممزق ، حتى تولى قيادتها الموفق ، فاستحالت الهزيمة نصراً ، ولكن أى نصر ؟ لقد كان نصراً بطيئاً ، إذ كانت تقف بينه وبين الثوار مستنقعات البصرة ، وظل يأخذها منهم قطعة قطعة .

ومن المحقق أن هذه الثورة أقدم ثورة عرفها العرب في المطالبة بالحرية ونقض الاسترقاق وتحقيق العدل الاجتماعي ، ولكن زعيمها لم يمتص بها في السعى إلى هذه الغايات كما كان يَعدُّ في أول ثورته ، فقد استباح في حروبه استرقاق الأحرار ، وكأنما ألغى ردمه الحرية على الزنج بفرضه الاسترقاق على غيرهم ، فانعكست صورة الاسترقاق ، ولكنها ظلت كما هي وظلت طبقات من الناس تسترق طبقات أخرى . وكان قد رأى لإنجاحاً لثورته أن يُضنى عليها مسحة دينية ، كما مر بنا في الفصل الأول ، فأشاع في الناس أن اسمه على بن محمد وأنه من سلالة زيد بن علي بن الحسين ، حتى يؤمنوا بأنه صاحب حق شرعى في الخلافة وأن من حقه الثورة على العباسيين ، بل من حقه عليهم أن ينصروه ويؤازروه . وانضم إليه كثيرون من

الأحرار وأعراب البوادي بجانب من انضموا إليه من الزنج وعبيد العراق ، ولكن ثورته باءت — بعد أربعة عشر عاماً من المعارك العنيفة — بالإخفاق الذريع .

ولا نريد أن نقف عند هذه الثورة الآن وما كان من صاحبها الذي ظلت ثورته أربعة عشر عاماً أو تزيد ، والذي كان يُسْرَفُ في القتل وسفك الدماء ، حتى قالوا إنه قتل في البصرة في يوم واحد من غاراته الكثيرة ثلاثمائة ألف ، وإنه كان يُسْهَبُ أصحابه الأموال ويَسْحَرَقُ الدور والقصور . كل ذلك لا نريد أن نقف عنده ، ولا عند ما يقال من أنه كان دائماً يخطب في أنصاره ^(١) . إنما نريد أن نقف عند ما بقى لنا من بعض أشعاره ^(٢) . يقول المرزبانى : « تُرَوِّى له أشعار كثيرة في البسالة والفتك » ، ويذكر أن ابن دريد كان يؤكد أنها من نظمه وأنها قُرِئت عليه أمامه ، فشهد بأنها له ، ولم يُسْكَرْها ، وكأن من معاصريه مَنْ كان يشكُّ في أنه شاعر يحسن صنع الشعر ونظمه ، مما جعل ابن دريد يؤدي الشهادة السالفة . وكان من قرية تسمى وَرَزَزِينَ بِلِيران ، وكأنه تلقَّنَ فيها من الآداب العربية ما جعله يحسن الخطابة والشعر جميعاً ، وله يخاطب بنى العباس :

بَنِي عَمَّنَا لَا تَوْقِدُوا نَارَ فِتْنَةٍ بَطِيءٌ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي خَمُودُهَا
بَنِي عَمَّنَا إِنَّا وَأَنْتُمْ أَنْأَمَلُ تَضَمَّنْهَا مِنْ رَاحَتِهَا عَقُودُهَا
بَنِي عَمَّنَا وَلَيْتُمْ التُّرُكُ أَمَرْنَا بَدِثًا وَأَعْقَابًا وَنَحْنُ شُهُودُهَا
فَأَقْسَمَ لَأَذُقْتُ الْقِرَاحَ - وَإِنْ أَذُقْ فَبِلُغَةِ عَيْشٍ - أَوْ يُبَارَ عَمِيدُهَا ^(٣)

وهو يسوق كلامه إلى العباسيين كأنه حقاً ابن عمهم على بن أبى طالب أو حفيده ، ويزعم أنهم يوقدون ضده نار فتنة ، وكان ينبغي أن يستسلموا له فليسوا جميعاً إلا أنامل يد هاشمية واحدة . ويلومهم أن أسلموا قيادة الدولة للأتراك ، وأنه سيجاهدكم جهاداً مريراً . وكان يكثر من تصوير ما يجرى في قصورهم من خمر ومجون ينبغي أن تبرأ منه

(١) الطبرى ٩/ ٤١٤ وما بعدها .

ص ١٥٥ وما بعدها .

(٢) انظر في أشعار صاحب الزنج معجم

(٣) الماء القراح : البارد العذب . بلغة

الشعراء للمرزبانى ص ١٤٨ وذيل زهر الآداب

العيش : أقل ما يكنى . يبار : يهلك .

المصر العباسى الثانى

قصور الخلافة وأن تكون قصور نسك وطهارة لاقصور إثم وعصيان ، وفي ذلك يقول :
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى قُصُورٍ بَبْغَدَا دَ وَمَا قَدْ حَوَتْهُ مِنْ كُلِّ عَاصٍ
وخمورٍ هناك تُشْرَبُ جَهْرًا وَرجالٍ عَلَى المعاصي حِرَاصٍ
لَسْتُ بِابْنِ الفَوَاطِمِ الزُّهْرِي إِنْ لَمْ أَقْجِمِ الخَيْلَ بَيْنَ تِلْكَ العِرَاصِ

وهو يسجل على العباسيين انصرافهم عن حياة الدين والعبادة إلى حياة اللهو
والمجون والعبث واقتراف الآثام ، حتى يستثير الناس معه . وينسب نفسه إلى فاطمة
الزهراء ، بل إلى الفواطم الزهر ، حتى يستهوى القلوب . ويعلن أنه سيجاهد العباسيين
ويستمر في جهاده حتى تسقط بغداد . وظل ثابتاً في جهاده مخلصاً له في أحلك
الظروف ، حتى بعد أن فقد الأمل ، فإنه لم يستسلم للموفق بعد أن استسلمت عامة
أنصاره ، ولا رضى الأمان حين عرضه عليه كما رضى أكثر جنده والبقية الباقية منهم ،
بل ظلَّ يقاتل حتى سُفِكَ دمه أمام منزله وهو ينشد :

عَلَيْكَ سَلامُ اللَّهِ يَا خَيْرَ مَنْزِلٍ خَرَجْنَا وَخَلَقْنَاهُ غَيْرَ ذَمِيمٍ
وتلقانا بعد ثورة صاحب الزنج ثورة بكر بن عبد العزيز بن أبي دُكَّاف في
الكرج وكان شاعراً ، وسنعرض له عما قريب . ونسبت ثورة القرامطة ، وكان دعائها
يَصَلُّونَهَا بالدعوة الإسماعيلية الشيعية ، كما مرَّ بنا في الفصل الأول . وكان غير
ثائر من هؤلاء الدعاة يَصِلُ نفسه مباشرة بمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ،
مزيفاً لذلك سلسلة نسب كاذبة ، على نحو ما صنع صاحب الزنج لنفسه نسباً
يصله يزيد بن علي زين العابدين . وكان داعيتهم الأول قرمط مكوّن الفرقة قد التقى
في سواد الكوفة بأحد دعاة الحركة الإسماعيلية ، فانضم إليه ، وأخذ في تنظيم حركته
القرمطية واضعاً لها من المبادئ الاشتراكية العادلة ما استهوى به قلوب العامة ،
فتبعه خلق كثير أخذ يُغيّر بهم على سواد الكوفة . وما فصل إلى سنة ٢٨٩ حتى
نجلده يخنق في ظروف غامضة ، ويتولى زعامة حركته زُكْرَوَيْه الدَّنْدَانِي ، ويرى
— كما مرَّ بنا — الدولة بالمرصاد له ولجماعته ، فيرسل بأبنائه: يحيى والحسين ومحمد
إلى قبيلة كلب ببادية السماوية بين العراق والشام ، لعلمهم يستجيبون إلى دعوتهم ،
ويتبعهم كثيرون ، ويباعون أكبرهم يحيى بن زكرويه الذي زعم لهم أنه من سلالة

محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق !، وتسمّى لهم باسم أبي عبد الله على بن محمد ، وقيل بل تسمى باسم محمد ، وتكهّن لهم مدعيًا أنه يُوحى إليه ، وكشف لهم عن عَصْدٍ له ناقصة وزعم أنها آيته أو معجزته ، كما زعم أن ناقته التي يركبها مأمورة وأنهم إذا ساروا وراءها في لقاء أى عدو جاءهم نصر الله والفتح المبين . ومضى بجموعه في سنة ٢٩٠ يهاجم المدن السورية ويغيث في الأرض فساداً . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية ، ولقيه أحد قوادها فتغلب عليه ومضى إلى الرقة يقتل ويسفك الدماء ، ودَحَرَ جيشاً للعباسيين ، وعاد يحاصر دمشق ، غير أنه قُتل على أبوابها . وكان شاعراً ، ترجم له المرزبان في معجمه (١) . ونراه في بعض أشعاره على شاكلة صاحب الزنج ينسب نفسه إلى الفواطم من بني هاشم ، يقول :

أنا ابنُ الفواطم من هاشمٍ وخيرُ سُلالةٍ ذا العالمِ
وطئتُ الشامَ برغم الأنامِ كوطءِ الحِمامِ بني آدمِ

وهي نسبة كاذبة . ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد بثورته نصرة العلويين ولا كان فيها متشيعاً لهم ، إنما كان متشيعاً لنفسه يريد أن يصل إلى الملك والسلطان ، ولذلك فصلناه مثل صاحب الزنج — على نحو ما مرّ بنا — عن العلويين وثوراتهم ودعواتهم السياسية، وله أبيات يذكر فيها النجوم والكواكب : المريخ والعيوق وسعد الذابحين ملوحاً للعامة التي تتبعه بأن علم التنجيم قد كشف له عن نصر عظيم يلقاه في الموصل ومدينة الرّحبة التي بناها طوق بن مالك ومدينة الرافقة، بل إنه سيدمر بغداد تدميراً وينهب كل ما في قصورها من أموال يقول :

تقاربت النجومُ وحان أمرُ قرانٍ قد دنا منه النذيرُ
فمريخُ الذبائح مستهلٌ قوًى ما لوقدته فتورُ
عيوقُ الحروب له احمرارُ وسعدُ الذابحين له بدورُ
فبشرُ رَحْبَتِي طوقِ بيومٍ من الأيام ليس له نظيرُ
ورافقةُ الضلالة ليس يُغنى إذا ما جئتها بابُ وسورُ

وبغداد فليس بها اعتياض على أمرى وليس لها نكير
أصبَحها فأتَرَكَها هَشِيمًا وَأَحْوَى ما حوَتْه بها القُصُور

ومن ثوار القرامطة الشعراء أبو طاهر الجَسَّابِي صاحب الأحساء والبحرين،
وكان أبوه أبو سعيد من أنصار قَرَمَط، وكلفه بنشر الدعوة في جنوبي إيران، وأخفقت
مسايعه، وعاد إلى قَرَمَط، فأرسله إلى البحرين والأحساء، وسرعان ما استجابت له
قبيلة عبد القيس. ودخلت المنطقة في سلطانه منذ سنة ٢٨٦ للهجرة، وقتله غلام
صقلبي في سنة ٣٠١ فخلفه ابنه أبو طاهر، وعظم أمره، إذ واقع عساكر الخليفة
المقتدر مراراً كما مرَّ بنا في الفصل الأول وفتك بغير جيش من جيوشه، واتسع
ملكه في شرق الجزيرة العربية، وكثر أتباعه وجنوده، ونال ما لم ينله قَرَمَطِي قبله.
وكان يزعم أنه داعية عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي الإسماعيلي، وكان شأنه قد
أخذ يعظم في إفريقية، ولم يكن يدعو له حقيقة، بل كان يتخذ ستاراً لخروجه
على الخلافة العباسية. وكان كثيراً ما يُغَيِّر على البصرة وينكِّل بأهلها، ويسفك
دماءهم، ويحرق دورهم كما يحرق المساجد. وكثيراً ما كان يُغَيِّر على قوافل الحجاج
يفتك ويقتل وينهب، وجيوشه تَغْدُو وتروح إلى عاصمته «هجر» محمَّلة
بالأموال، فكان طبيعياً أن يمتدَّ به طمعه وطموحه إلى أن يستولى على بغداد، بل
إلى أن يستولى على العالم الإسلامي كله وبلغ به تهويله على العامة أن كان يزعم
لها أنه سيظل حياً حتى ينزل عيسى من السماء بأخرة، وفي ذلك كله يقول من
قصيدة طويلة مهدداً متوعداً (١):

فَمَنْ مَبْلَغُ أَهْلِ الْعِرَاقِ رِسَالَةً بَأْنِي أَنَا الْمَرْهُوبُ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
فَيَا وَيْلَهُمْ مِنْ وَقْعَةٍ بَعْدَ وَقْعَةٍ يُسَاقُونَ سَوَاقَ الشَّاءِ لِلذَّبْحِ وَالْبَقَرِ
سَأَصْرُفُ خَيْلِي نَحْوَ مِصْرَ وَبَرْقَةٍ إِلَى قَيْرَوَانَ التُّرْكِ وَالرُّومِ وَالْخَزَرِ
أَكِيلُهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى أُبَيِّدَهُمْ فَلَا أَبْقِي مِنْهُمْ نَسْلَ أَنْثَى وَلَا ذَكَرَ
أَعْمَرُ حَتَّى يَأْتِ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ فَيَحْمَدُ آثَارِي وَأَرْضِي بِمَا أَمَرُ
وعزم في سنة ٣١٥ على غزو بغداد، فخرج إليها في ألف فارس وخمسة

آلاف راجل ، فجهَّز المقتدر لحربه جيشاً بقيادة يوسف بن أبي السَّاج ،
 والتقى الجيشان ، ودارت الدوائر على ابن أبي السَّاج وجيشه ، وأخذ أسيراً ، وأسرع
 مؤنس بجيش كثيف في نحو أربعين ألفاً ، وانضم إليه الحمدانيون وغيرهم من عرب
 العراق والموصل ، والتقى بأبي طاهر وجيشه عند الأنبار ، غير أن أبا طاهر انصرف
 راجعاً إلى بلاده ، ولم يواقع مؤنس مع ما اشتهر به من شدة بأسه ، وكأنا خشى
 على نفسه مغبّة الحرب ، مما جعل أبا طاهر يرسل له بالآيات التالية ساخرّاً منه
 سخرية شديدة (١) :

قُولُوا لِمُؤَنَسِكُمْ بِالرَّاحِ كُنْ أُنْسًا واستتبع الرَّاحَ سُرنِيَاً ومزمارا
 وقد تَمَثَّلْتُ عن شوقٍ تَقَاذِفُ بِي بيتاً من الشعر للماضين قد سارا
 نَزُورُكُمْ لَمْ نُوَاخِذْكُمْ بِجَفْوَتِكُمْ إِنْ الْكَرِيمَ إِذَا لَمْ يُسْتَزَرَ زَارا
 وهو يهزأ به وبشجاعته التي عُرِفَ بها ، ويقول له إنك لست من أهل الحرب
 والبأس ، وإنما أنت من أهل الكاس والطاس وآلات الطرب من السرنای وغير
 السرنای ، ويستمر في هزؤه ، فهو سيزوره ويزور بلاده للفتك به وبجنوده .
 وتُطْغِي أبا طاهر الجنابى انتصاراته على جند الخلافة ، ويَغُرُّه بالله الغرور ،
 ويشتهر عنه أنه لا يصلى ولا يصوم ولا يعرف حدود الله . وما يوافي شهر ذى الحجة
 في سنة ٣١٧ حتى ينقل غاراته على الحجَّاج من قوافلهم إلى البيت الحرام ، وإذا
 السيوف تنوشهم وتسيل دماؤهم أنهاراً يوم التَّروِيَةِ ، وهم يهللون لربهم ويلبسون ،
 وهو وأنصاره يَسْخَرُونَ فيهم ، كأنهم كباشٌ أُعِدَّتْ لِلذَّبْحِ ، دون أى شفقة أو
 رحمة . ولم يكتفوا بمن ذبحوهم في فجاج مكة ، فقد دخلوا المسجد الحرام ينحرون
 ويلذبحون والناس يتعلقون بأستار الكعبة وهم يمزقونها ويمزقون جلودهم بسيوفهم ،
 ولا شفيح لهم ولا نصير من هذا الشيطان الرجيم . وبلغ من سفهه وخرقه أن أمر
 بطرح القتلى في بئر زمزم ، واقتلع الحجر الأسود من موضعه ، وأخذه معه إلى هجر
 وظل بها حتى سنة ٣٣٩ إذ أعاده القرامطة إلى مكة خوفاً من الخليفة المطيع وخشية
 من بأسه وبأس البويهيين . وجرد أبو طاهر الكعبة من كل ما كان بها من تحف

أهداها الخلفاء على مرّ السنين . وروى المؤرخون أنه كان في أثناء هذا العمل الوحشي الفظيع يترنّم بأشعار له مبتهجاً ؛ وكأنما كان يشقى غليل نفسه من الإسلام وصاحبه وأهله بما ارتكبه من هذه الخطايا الموبقات ، وبما كان يُنشده من هذه الأشعار التي يحادّ بها الله ورسوله من مثل قوله ^(١) :

ولو كان هذا البيتُ بيتاً لرَبُّنا لصبَّ علينا النارَ من فوقنا صَباً
لأنّا حَجَجْنَا حِجَّةً جاهليَّةً محلَّةً لم تبق شرقاً ولا غرباً
ولكنَّ ربَّ العرش جلَّ جلاله ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حُجْباً
وكانه بذلك يعلن كفره ، صريحاً غير موار ، بفريضة الحج إلى بيت
الله ، التي تُعدّ ركناً أساسياً من أركان الإسلام . وبذلك يتضح أن أبا طاهر
لم يكن ثائراً عنيفاً فحسب مثله مثل يحيى بن زكرويه وصاحب الزنج ، بل إنه
يتقدمهما خطوات في الثورة الدامية والعنف والانفصال عن العلويين ، إذ خلع
الإسلام كله من عنقه ومضى يحارب أهله ويسيل دماءهم وينبجهم ذبحاً حيث
لا يحل صيد الحيوانات ولا الطيور ، غير ما انتهكه من حرّات بيت الله المقدس
انتهاكاً ليس له سابقة ولا لاحقة في التاريخ . ولعل من الخير أن نبسط القول
قليلاً في شاعرين ثارا على الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري ، وهما محمد بن
البيث وبكر بن عبد العزيز بن أبي دُؤلف .

محمد ^(٢) بن البيث

من فتيان بني أسد نزلت عشيرته في أذَرَبِيجان ، واشتهر أبوه بأنه كان من
الفُتُكّ الصعاليك ، واستطاع محمد أن يمتلك في تلك الديار قلعتين : قلعة تسمى
شاهي وأخرى تسمى بكدر ، وكانت شاهي أشدّ مناعة فكان يقيم فيها كثيراً .
واشتهر أمره في عصر المعتصم وحروب بابك ، فإنه كان يحاول أن يكون محايداً بين
الطرفين المتخاصمين ، فإذا نزلت سرايا أحدهما أضافها وأحسن الضيافة ، وهو في
أثناء ذلك يراوغ ، وقد ينقل للجيش العباسي وقواده أخبار بابك ، وقد ينقل إلى بابك

١٧٠ ، ١٧١ ، مروج الذهب ٤ / ٤١
ومعجم الشعراء ص ٣٨٥ .

(١) تكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ٦٢ .
(٢) انظر في ثورة محمد بن البيث وأخباره
الطبري ٩ / ٢٥ ، ٢٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

أخبار الجيش العباسي . وكان هواه مع العباسيين ، غير أن وقوفه متفرجاً دون أن يُقنم نفسه في تلك الحروب وينصر العباسيين جعل لإسحق بن إبراهيم المصعبي أحد قواد المعتصم يقبض عليه ويُلْقَى به في غياهب السجون . ويتوسط له بعض القواد ، فيُفْرَج عنه ، على ألا يبرح سامراً حتى إذا كانت سنة ٢٣٤ لعصر المتوكل هرب إلى دياره وحصونه فيها ، واختار حصن مَرْنَد ، فجمع فيه عُدَّه وأسلحته وأنصاره وزادهم ، ورمَّ ما كان وَهْمِي من سورها ، وكان في داخلها وخارجها بساتين ، تدور من حولها أشجار كثيرة . ووجهٌ إليه المتوكل بعض الجيوش فلم تستطع أن تصل إليه ، ثم وجهه إليه بُغَا الشرائي ، فزحف إلى الحصن وقطع ما حوله من الشجر نحواً من مائة ألف شجرة ، ونصب عليه المجانيق ، ويثس ابن البيث من مطاولة الحصار ، ففرَّ على وجهه وهو ينشد :

كم قد قضيتُ أموراً كان أهملها غيرى وقد أخذ الإبلأس بالكظم^(١)
لا تعذليني فيما ليس ينفعني إليك غنى جرى المقدار بالقلم
سأتلف المال في عُسرٍ وفي يُسرٍ إن الجواد الذي يعطى على العدم

وتبعه نَقَرٌ من الجيش العباسي ، فلحقوه ، وهو راكب دابة متقلد سيفاً يريد أن يصير إلى نهر عليه رَحَى ليستخفي في الرَّحَى ، وأخذوه أسيراً ذليلاً ، وانتهب الجند داره ودور أصحابه وبعض دور المدينة ، ونادى مناد بالامتناع عن النهب . وأتى بابن البيث إلى المتوكل ، فأمر بضرب عنقه ، فطرح على نِطْع ، وجاء السَّيَافون فلوَّحوا له بسيوفهم ، وقال له المتوكل حانقاً غاضباً : ما دعا يا محمد إلى ما صنعت ؟ فأجابه : الشَّقْوَةُ وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإن لي فيك لظنَّين أسبقهما إلى قلبي أولاً هما بك ، وهو العفو ، ثم اندفع ينشده :

أبى الناسُ إلا أنك اليوم قاتلي إمام الهدى والصَّفْحُ بالحرِّ أَجْمَلُ
وهل أنا إلا جُبْلَةٌ من خطيئة وعفوك من نور النبوة يُجْبِلُ^(٢)
تضاءل ذنبي عند عفوك قِلَّةً فَمَنْ بَعَفُوْكَ منك والعفو أفضلُ
فإنك خير السابقين إلى العلا ولا شك أن خيرُ الفعَّالين تَفَعَّلُ

(١) الكظم : مخرج النفس من الحاق . الإبلأس : (٢) الحبة : الحلقة والطبيعة .
انقطاع الحبة .

فقال المتوكل : أفعل خيرهما وأمنُ عليك ، ارجعْ إلى منزلك ، وخفّف عنه الحكم من الإعدام إلى الحبس وظل فيه حتى وافاه الموت . وفي الطبرى أنه كما كان ينظم بالعربية بعض أشعار له كان ينظم بالفارسية أشعاراً أخرى . وكان جواداً ممدّحاً طالما قصده الشعراء بمدحهم ، وأجزل لهم في عطاءه ، ومن ذكر منهم المرزبانى فى معجمه يحيى^(١) بن أحمد من أهل مدينة الرّحبة فى الموصل ، وفيه يقول : « كان فى ناحية محمد بن البعيث ، ومدحه مدحاً كثيراً » منه قصيدة أولها :

لا زال محسوداً على أفعاله وحسوده فى الناس غير محسدٍ
شطراه بين معاقبٍ أو غافرٍ أو عائدٍ متفضّلٍ أو مُبتدئٍ
شفعاً ووتراً كلّ ذاك فعّاله كالدهر إلا أنه لا يعتدئ
فالناس تحت لوائه من راغبٍ أو راهبٍ أو رائحٍ أو مُغتدئٍ

وكان ابن البعيث يستخدم يحيى فى الدعاية له ، وهو يصوره فارساً رائحاً غادياً على أعدائه ، والناس بين راهب من بطشه وراغب فى كرمه الفياض ، وتارة يعاقب أعداءه عقاباً أليماً ، وتارة يعفو عفواً رحيماً ، ويدعو له أن يظل محسوداً متسنماً لذروة المجد الرفيعة . ومن قوله فيه :

متى ألقى من آل البعيث محمداً أحلّ رياضاً للعلّاء بمحمدٍ
وتضحك أم البشر عني بنيلهِ فأرجع محسوداً بنيلٍ محسدٍ

ويبدو أن ابن البعيث كان شخصية ممتازة ، فهو جواد ، وهو شجاع من أهل البأس والفتوة ، وهو أديب يحسن العربية والفارسية . وبلغ من ثبات جأشه وجنانه أن أنشد المتوكل الأبيات السالفة وهو على النطع والسيّاف شاهر سيفه يريد أن ينقض عليه وأن يحزّ رأسه ويُرْهق روحه ، وشرّر الغضب يتطاير من عيني المتوكل وقد انتفخت أوداجه . وكأن ذلك كله لم يملأ نفسه خوفاً ولا هلعاً ، فظل رابط الجأش مجتمع القلب ، لا تخونه الكلمة فى اللحظة الحرجة ، بل لا يخونه البيت

(١) انظر فى ترجمته وأشعاره معجم الشعراء
س ٤٩١ .

الذى يستلُّ الغضب من نفس المتوكل . وقد بلغ منه مبلغاً خطيراً ، حتى أوشك أن يقضى عليه قضاء مبرماً . وهى قدرة نفسية كانت تمتاز بقدرته البيانية .

بكر^(١) بن عبد العزيز بن أبي دلف

حفيد أبي دُلَف القاسم بن عيسى العِجلى الشيباني البطل المغوار الذى أبلى بلاء عظيمًا فى حروب بابل لعهد المأمون والمعتصم ، وكان هرون الرشيد ولأه — وهو حَدَّث السن — أعمال الجبل فى إيران ، ولم يزل عليها إلى أن تُوَفِّي سنة خمس وعشرين ومائتين . وكان أديبًا شاعرًا وله مقطوعات تردَّد فى كتب الأدب ، وهو مدحج أبي تمام وعلى بن جبلة الذى قال فيه :

إنما الدنيا أبو دُلَف بين بادية ومحتَضرة
فإذا وَلَّى أبو دُلَف وَلَّت الدنيا على أثره

وقد تولَّى إقليم الجبل ابنه عبد^(٢) العزيز وكان شاعرًا ، وشجاعًا باسلاً ، وعزله عنه المعتز وولى عليه موسى بن بَغَا ، فثارت ثورة عبد العزيز وفرَّ إلى قلعة له ولعشيرته فى الكَرَج بين همدان وأصفهان ، وظل ينازل الدولة العباسية . ونراه فى سنة ٢٥٤ يَسْجَى همدان . ويخلفه ابنه أحمد ، فيتولى زعامة أسرته ويمدَّ سلطانه إلى أصبهان ويتوفى سنة ٢٨٠ فيتنازع الرئاسة بعده أخواه عمر وبكر ، ويتمَّ لعمر القيام بالأمر ، ولا يرسل إليه الخليفة المعتضد بالولاية ، حتى لا يشور بكر ، غير أنه عاد فولَّى فى سنة ٢٨٣ عيسى النُّوشَرى على أصبهان ، وغضب بكر ومن كانوا ينضوون تحت لوائه من الأعراب ، فولَّى وجهه معهم نحو الأهواز ، وخرج فى طلبه القائد التركى وصيف حتى بلغ حدود فارس . ولحقه ، ولكنه لم يحاول أن يبادره بالحرب ، وباتا كلُّ واحد منهما قريب من صاحبه ، وارتحل بكر ليلاً ولم يتبسَّعه وصيف ، وعاد بكر إلى أصبهان ورجع وصيف إلى بغداد . وكتب المعتضد إلى بدر غلامه المعروف باسم بدر المعتضدى يأمره بطلب بكر بن عبد العزيز وعمره .

وكان بكر شاعرًا انحدر إليه الشعر من أبيه وجده ، وله ديوان صغير نُشِر فى

(٢) انظر فى عبد العزيز وولايته على الجبل
الطبرى ٩ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ .

(١) انظر فى بكر وأشعاره ديوانه وتاريخ
الطبرى ١٠ / ٤٧ ، ٥١ ، ٦٣ .

دهلى باسم شعر بكر بن عبد العزيز وهو يتغنى فى أشعاره بفتوته وفروسيته ، وله
ميمية طريفة نظمها حين سمع بأن المعتضد أمر بداراً غلامه أن يتعقبه ، وفيها يتوعده
ويتهدده بمثل قوله :

أَلْقَى الْأَحْبَةَ بِالْعِرَاقِ عَصِيَّهُمْ وَبَقِيَتْ نُصْبَ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ
وَتَشَعَّبَ الْعَرَبَ الَّذِينَ تَصَدَّعُوا فَذَبِبتُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ بِحُسَامِي
فَلَأَقْرَعَنَّ صَفَاةَ دَهْرٍ نَابِهِمْ قَرَعًا يَهْدُ رِوَاسِي الْأَعْلَامِ
وَلَأَتَرَكَنَّ الْوَارِدِينَ حِيَاضَهُمْ بِقَرَارَةٍ لِمَوَاطِي الْأَقْدَامِ
يَا بَذْرُ إِنَّكَ لَوْ شَهِدْتَ مَوَاقِفِي وَالْمَوْتَ يَلْحَظُ وَالصَّفَا حُ دَوَايِ
لَلذِمَّتْ رَأْيِكَ فِي إِضَاعَةِ حُرْمَتِي وَلِضَاقِ ذَرْعِكَ فِي اطِّرَاحِ ذِمَامِي
حَرَكْتَنِي بَعْدَ السَّكُونِ وَإِنَّمَا حَرَكْتَ مِنْ حِصْنِي جِبَالَ تِهَامِ
وَوَاضِحٌ مِنْ حَدِيثِهِ فِي مَطَالَعِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَنَّهُ يَأْسَى لِلْعَرَبِ فِي عَصْرِهِ ، فَقَدْ
تَشَعَّبُوا وَتَفَرَّقُوا شَيْعَةً وَطَرَائِقَ شَتًى ، فَغَضَّهُمْ الْدَّهْرُ بَنَاهُ وَأَصْبَحَتْ حِيَاضُهُمْ
مَبَاحَةً يَرِدُهَا الْأَعَاجِمُ وَغَيْرُ الْأَعَاجِمِ ، وَهِيَ هِيَ وَحْدَهُ يَقِفُ لِلدَّفَاعِ عَنْ عَرَبِيْنَهُمْ ،
وَلَا مَعِينَ لَهُ غَيْرَ عَزِيْمَتِهِ الْمَاضِيَةِ وَسَيُوفِهِ الْقَاطِعَةِ . وَإِنَّهُ لَيَتَّهَدُّ الدَّهْرُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ أَشَدَّ
النِّكَالِ كَمَا يَتَّهَدُّ مَنْ اسْتَبَاحُوا حِمَى الْعَرَبِ وَالْعُرُوبَةِ بِالذِّلِّ وَالْهَوَانِ حَتَّى لَيَصْبَحُونَ
مَوْطِنًا لِلْأَقْدَامِ ، وَيَتَحَوَّلُ إِلَى بَدْرِ الْمُعْتَضِدِ وَاصِفًا لَهُ مَوَاقِفَهُ الْبَطُولِيَّةَ حِينَ تُسَلِّ
السُّيُوفُ وَتَسْدُدُ الرِّمَاحُ وَيَلْتَقِمُ الْمَوْتَ الْأَبْطَالُ ، حَتَّى يَسْتَشْعِرَ النَّدَمَ عَلَى تَضْيِيعِهِ
لِذِمَامِهِ وَتَحْرِيكِهِ لِلْحَرْبِ الْمُبِيرَةِ بَعْدَ سَكُونِهَا . وَيَبْدُو أَنْ بَدْرًا رَأَى أَنْ يَكْبِلَ أَمْرَهُ
إِلَى غَيْرِهِ ، فَكَلَّفَ عَيْسَى النُّوشَرِيَّ بِمُهَاجَمَتِهِ ، وَصَدَّعَ لَتَكْلِيفِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْجَحْ
سَرِيعًا فِي مَهْمَتِهِ ، وَاضْطَرَّ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ أَنْ يَنْسَحِبَ بِحِيشِهِ ، فَقَالَ بَكْرٌ يَذْكُرُ
فِرَارَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَيَتَّهَدُّ بَدْرًا صَاحِبَهُ ، مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ :

لَيْسَ كَالسَّيْفِ مَوْثَنٌ حِينَ يَغْرُو حَادِثٌ مَعْضَلٌ وَيَفْدَحُ أَمْرُ
أَوْقَدُوا الْحَرْبَ بَيْنَنَا فَاصْطَلَوْهَا ثُمَّ حَاصُوا فَأَيْنَ مِنْهَا الْمَقَرُّ (١)
وَبَغَوْا شَرَّنَا فَهَذَا أَوَانُ قَدْ بَدَأَ شَرُّهُ وَيَتْلُوهُ شَرُّ

قد رأى النُوشريُّ لما التقينا مَنْ إذا أُشْرِعَ الرماحُ يَفِرُّ
جاء في قَسْطِلِ لُهامٍ فَضَّلْنَا صَوْلَةَ دُونِها الكِماءُ تَهَرُّ
غَرًّا بَدْرًا حَلَمِي وَفَضْلُ أَنانِي واحتمالي وذاك مما يَغُرُّ

على أنه سرعان ما اضطرَّ إلى الفرار أمام جيوش الخلافة سنة ٢٨٤ إذ التقى به النُوشري في حدود أصفهان ، فقتل رجاله واستباح عسكره . وأفلت في نفر يسير ، وغادر إقليم الجبل متجهاً إلى محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان ، فأكرم وفادته عليه ، وقربه منه ، وولاه على إقليم رويان ، غير أنه مات مسموماً في طريقه إليها لسنة ٢٨٥ .

٤

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا نبالغ إذا قلنا إن جميع وزراء العصر وأكثر ولائه وقواده داروا على السنة الشعراء بمدحونهم طلباً للنوال ، إذ كانت بأيديهم أموال الدولة ، وكانوا ينثرونها نَشْراً على الدعاية لهم ، ولم يكن للدعاية حينئذ لسان سوى الشعر ، فالوزير وكذلك الولاة والقائد حين يُطَرِّيه شاعر ويشي عليه يطير اسمه في الناس ، ولذلك كان كثيرون يَسْجَمِعُونَ الشعراء من حولهم ، لكي يعدّوا مناقبهم ، ويصوّروا كفاءتهم وأنهم من الصفوة المختارة للأمة . وكان من بينهم شعراء وأدباء يقدرون الشعر وأصحابه ، ويرفعون منزلتهم عالية . وكان في مقدمتهم لعصر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان وكان كثيرون يكادون يقصرون أنفسهم على مديحه وما يصلحهم من نواله^(١) ، وهو من ممدوحى البحترى كما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان شاعراً مرهف الذوق ، وله البيت المشهور^(٢) :

ليس يُسْتَخَسَّنُ في شَرِّعِ الهَوَى عاشقٌ يُحْسِنُ تَأْلِيفَ الحُجَجِ

(٢) معجم الشعراء ص ١٩١ .

(١) انظر مثلاً ترجمة ابن أبي فنن الشاعر في تاريخ بغداد ٤ / ٢٠٢ .

ومثله من وزراء المتوكل في كثرة مادحيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وهو أيضاً ، من ممدوحى البحرى ، ومن مادحيه ^(١) محمد بن غالب الأصبهاني والقنبري ^(٢) ، وفيه يقول أبو هيفان يوم النسيروز وفيه تقدم هدايا كثيرة ^(٣) :

إذا نحن مدحناك رعيننا حرمة المجد
وما استطرفت للإهداء إلا طرّف الحمْد

وكان يَزِرُ للمنتصر أحمد بن الحبيب ولم تكن له رصانة صاحبيه ، بل كان فيه حمق كثير ، ومع ذلك مدحه غير شاعر طلبا للربح والنوال ، من مثل قول محمد بن غياث الكاتب فيه ^(٤) :

سموه أحمد فالإسلام يحمده والدهر كاسم أبيه ممرع خصب
فلا فضائل إلا منه أولها ولا مواهب إلا دون ما يهب

ووزر للمستعين أبو محمد صالح بن يزداد ، ويردّ البحرى في ديوانه مدحه ، وتلقانا مدائح في وزراء المعتز مثل عيسى بن فرخان شاه وجعفر بن محمود الإسكافي . ويتولى وزارة المهتدى سليمان بن وهب ، وهو كما يقول الفخرى أحد كتّاب الدنيا وأحد عقلاء العالم ، وكان يحسن الشعر كما كان يحسن الكتابة ، وهو من ممدوحى البحرى ، وفي كتاب الأغاني ترجمة طويلة له ، وكثير من المدائح قدّمت إليه من مثل قول هرون بن محمد البالسى ^(٥) :

أسفر الشرق منك والغرب عن ضو
من العدل فاق ضوء البدور
أنشر الناس غيثكم بعدما كا
نوا رفاتاً من قبل يوم النشور ^(٦)

ووزر للمعتد الحسن بن مّخلّد ، وكان ماهراً في الكتابة ، وهو أيضاً من ممدوحى البحرى ، وكان مقصداً للشعراء . ويخلفه إسماعيل بن بلبل ، وهو كسابقه

(٥) أغاني (ساسى) ٦٧/٢٠ ومعجم

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٩ .

الشعراء ص ٤٦٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٢٣ .

(٦) أنشر : أحي .

(٣) طبقات الشعراء لأبن المعتز ص ٤٠٩ .

(٤) معجم الشعراء ص ٣٧٨ .

من ممدوحى البحرى ، ومدايح ابن الرومى وأهاجيه فيه مشهورة . ويكثر البحرى وابن الرومى معاً من مديح وزير المعتمد صاعد وابنه العلاء وأخيه عبدون ، كما يكثر ابن الرومى من مديح عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد وابنه القاسم وزير المعتضد ، وفي ديوان ابن المعتز مدائح لهما مختلفة . وتداول أسماء وزراء المكتفى والمقتدر على ألسنة الشعراء ، وفي ابن الفرات وزير المقتدر يقول ابن العلاف (١) :

يَتَلَقَّى النَّدَى بِوَجْهِ حَيٍّ وَصُدُورَ الْقَنَّا بِوَجْهِ وَقَاحِ
هَكَذَا هَكَذَا تَكُونُ الْمَعَالَى طُرُقُ الْجِدِّ غَيْرَ طُرُقِ الْمِرَاحِ

ولأبى بكر يحيى بن محمد الصولى أشعار ومدايح كثيرة فى وزراء العصر المتأخرين منذ عصر المقتدر ، وكان يدمج مديحهم فى مديح الخلفاء ، وقد يمدحهم مدحاً مستقلاً من مثل قوله فى أبى عبد الله البريدى وزير الخليفة المتقى (٢) :

مَا رَأَى النَّاسُ بِالْوَزِيرِ الْبَرِيدِ كَذَا الْيَوْمَ مِنْهُ حُسْنًا وَفَخْرًا
الَّذِى يَعْتَشِقُ الْمَكَارِمَ وَالْمَجْدَ وَيَشْتَرِى بِالْمَالِ حَمْدًا وَشُكْرًا

ولعل أكثر الولاة مديحاً فى هذا العصر آل طاهر ، وفى مقدمتهم طاهر بن عبد الله بن طاهر والى خراسان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وأخواه عبيد الله وسليمان ، وعرضنا فيما أسلفنا مدائح البحرى وابن الرومى فيهم ، ومن كان منقطعاً إليهم أبو الأشعث المروزى (٣) . وفى طاهر يقول مدرك بن غزوان الجعفرى من قصيدة (٤) :

حَمَى طَاهِرٌ شَرْقَ الْبِلَادِ بِيَمِينِهِ وَشَعَثُ النَّوَاصِي لَا تَجْفُ لِبُودِهَا (٥)
يُنْبِخُ بِهَا أَرْضَ الْعَدُوِّ وَيَبْتِنِ مَآثِرَ مَجْدٍ كَانَ قَدْماً يَشِيدُهَا

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٢ .

(٤) معجم الشعراء ص ٢٣٤ .

(٥) شعث النواصى : الخيل .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٥٩ .

مقابلة على ص ٤٥٤ .

(٢) أخبار الراضى والمتقى بالله للصولى

ص ٢٠٢ .

ومن كان يخص محمد بن عبد الله بن طاهر بمدائحه ابن أبي فسنن ،
وتصادف أن كانت له ضيعة بجوار إقطاع له ، وكان عامل الخراج والعشور يلح
عليه في طلب عشوره وخراجه ، وربما آذاه ، فكتب إلى محمد يستغيث به من
قصيدة طويلة ^(١) :

أَبْنَى حُسَيْنٍ إِنِّى أَصْبَحْتُ فِي كَنَفِ الْأَمِيرِ
وَلَنَا مَعَاشٌ فِي قَطِيعِ مَتْنِ عَلَى الْمَاءِ النَّخِيرِ
لَوْلَا تَرَدُّدُ عَامِلٍ كَالْكَلْبِ فِي يَوْمٍ مَطِيرِ
فَهَلِ الْأَمِيرُ بِجُودِهِ مِنْ قَبْجِ طَلْعَتِهِ مُجِيرِ

فلما قرأ محمد القصيدة وقَعَ تحتها قد أجركك أبا عبد الله وأمرنا لك باحتمال
خارجك — وكان في كل سنة ستة آلاف درهم — وحمل إليه ألف دينار ، وحلف
عليه أن يقبلها . قال ابن أبي فتن : وصرت منذ هذا الحين أمدحه في كل عام
بقصيدة . ومن الولاة الذين طالما مدحهم الشعراء أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي
والى الكوفة ، وهو من ممدوحى البحرى وابن الرومى ، ومثله إبراهيم بن المدبر الذى
ولى الدواوين فى سامراء وبغداد وولى فى بعض السنوات البصرة فأغرق الشعراء بأمواله
وأغرقوه بمدائحهم ، وهو ممدوح البحرى . ونرى شاعراً يكاد يخصه بمدحيه
وخاصة طوال مقامه فى البصرة ، وهو أبو شُرَاعَة شاعرها ، وكان لا يفارقه أيام
تقلده لها ولا يمنعه حاجة ولا شفاعاة يسألها إلا حققها له ، وفيه يقول ^(٢) :

إِنَّمَا لَدَّتْكَ فِي الْمَالِ شَتَّى صَوْنُكَ الْعِرْضَ وَابْتِذَالَ الْمَالِ
مَا نَبَالَى إِذَا بَقِيَتْ سَلِيمًا مِنْ تَوَلَّيْتُ بِهِ صُرُوفُ اللَّيَالِ

ومرّ بنا فى حديثنا عن البحرى أنه مدح أحمد بن طولون أمير مصر وابنه
خمارويه وبعض قواده ، وأنه كان يمدح الهيثم بن عبد الله التغلبى والى الموصل
وسيا الطويل والى حلب ورافع بن هرثمة والى الرى ، كما مدح بعض قواد الترك مثل
وصيف الصغير وأذكوتهين . ولا بد أن شعراً كثيراً نُظِمَ فى مديح القواد ، إذ تشير

(٢) أغاني (طبع الساسى) ٣٦/٢٠ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٦ والديارات ص ١٢٥ .

نصوص كثيرة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان من شعراء العسكر ، ومع ذلك نفتقد الشعر الذى يصور بطولة قواد العصر إلا ما نُظِمَ في الموفق وابنه المعتضد ، مما مرّت بنا الإشارة إليه عند البحرى وابن الرومى وابن المعتز . ويتعرض أبو بكر الصولى لبعض القواد في عصره وخاصة في مديحه لبعض الخلفاء من مثل محمد بن ياقوت القائد في عصر الراضى ، وكان يتحكم في شئون الدولة حتى أصبح ابن مقلة الوزير معه كالعارية وله فيهما ضادية طويلة ^(١) . وامتدح الشعراء كثيرين من الكتاب ورؤساء الدواوين — وأكثر من سميناهم من الوزراء عملوا في الدواوين أولاً — ومن كان ممدّحاً منهم آل ثوابة ، وقد توارثوا ديوان الرسائل منذ عصر المعتضد ، وكان من أكثرهم جوداً وكرمًا أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة ، وهو ممدوح البحرى ، وكان يمدحه شعراء كثيرون دبّجوا فيه أشعاراً بديعة من مثل قول أبى هيفان ^(٢) :

الثوَابِيُّ فَتَى لَيْسَ لَهُ فِي سِوَى السُّؤْدَدِ وَالْمَجْدِ وَطَرٌ

وقوله ^(٣) :

نَفْسِي فِدَاءُ أَبِي الْعَبَّاسِ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يَنْسِنِي قَطُّ فِي نَائِي وَلَا كَثْبٍ
يَقْرَى وَبِالرَّقَّةِ الْبَيْضَاءِ مَنْزِلُهُ مِنْ بِالْعَرَّاقِينَ مِنْ عُجْجَمٍ وَمِنْ عَرَبٍ
ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من شعراء هؤلاء الرؤساء ليتضح لنا مديحهم في أضواء أكثر وضوحاً ، وهم أبو على البصير وأحمد بن أبى طاهر وابن دُرَيْد .

أبو على ^(٤) البصير

اسمه الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس ، أصل أسرته من الأنبار ، انتقلت إلى الكوفة فنزلت في حى النَّخَع ، وهى أسرة فارسية الأصل . وكان أبو على ضريباً

ومرج الذهب للسعودى ٦٢ / ٤ ، ٨٤

ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٨٥ ونكت

الهميان ص ٢٢٥ وزهر الآداب للحصرى ٣

٩٥ / ١٩٣ ، والديارات ص ٨١ ، ٢٤٨

والفهرست ص ١٨٤

(١) أخبار الراضى والمتقى للصول ص ١٠ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٠ .

(٣) ديوان المعانى ١ / ٦٥ .

(٤) انظر في أخبار أبى على البصير وأشعاره

كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨

ولُقِّبَ البصير على العادة في التفاؤل أو لذكائه وفطنته . وكان شيعيَّ الهوى على مذهب أهل بلدته الكوفة ، وأكبر الظن أنه كان إماميًّا يؤمن بالتقيَّة ، ولذلك لم ير بأسًا في أن يترك الكوفة إلى بغداد وسامراء . ونزل الأخيرة في خلافة المعتصم ومدحه ومدح جماعة من قواده ، ولزم المتوكل والفتح بن خاقان بمدحهما وينال جوائزهما ، ولحق زمن المعتر وهنأ بالخلافة كما مر بنا في غير هذا الموضع . ولم يكن شاعرًا فحسب ، بل كان أيضًا صاحب رسائل نثرية بارعة ، وفي الجزء الرابع من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت قطعة منها بديعة . ويقول المسعودي : « كان من أطيب الناس في زمانه لا يزال يأتي بالبيت النادر والمثل السائر الذي لا يأتي به غيره ، وله في الفضل حفيد الحسن بن سهل :

ملكٌ ندفع - ما نخشى - به - ونُصلح منا ما فسَدُ

ينجز الناس إذا ما وعدوا وإذا ما أنجز الفضلُ وعد

ودقة العبارة واضحة ، وواضح معها دقة الفكرة في البيت الثاني ، فالفضل لا يزال يؤدي وعوده وكلما أدَّى وعداً وعد ثانية ، فهو بحر من الجود لا ينقطع فيسِّضه ، ومن طريف ماله في الفتح بن خاقان قوله واصفًا بلاغته وشعره :

سمعنا بأشعار الملوك فكلُّها إذا عَصَّ مَتْنِيهِ الثُّقَافُ تَأَوَّدَا

سوى ما رأينا لامرئ القيس إننا نراه متى لم يشعر الفتحُ أوحدا

أقام زماناً يسمع القول صامتاً ونحسبه إن رام أكْدَى وأصلدا^(١)

فلما امتطاه راكباً ذلَّ صعبه وسار فأضحى قد أغار وأنجدا

فأشعار الملوك قبل الفتح لا تثبت عند الثِّقَاف والتمحيص ولا تستقيم بل تتأوَّد وتنشئ إلا ما كان من شعر امرئ القيس ، ولكن بشرط ألا ينظم الفتح وكأنه يعلو به على أبي الشعر العربي كله . وصورة يطيل إرهاف سمعه لما دحيه ، حتى ليظن الرائي أنه لا يحسن قول الشعر ولا نظمه ، حتى إذا رامه ونظمه ذاع في طول البلاد وعرضها وفي حَزَنُهَا وسهولها ونجادها وأغوارها . ويقول الرواة إنه كان يتشيع وإن له في ذلك أشعاراً ، ولم يصلنا من هذه الأشعار شيء ولعل كثيراً منها كان في مدح آل البيت .

(١) أكْدَى وأصلد : أعطى قليلا .

وروى له الحصرى تهنته بمولود ، نظن ظناً أنه قدمها لأحد أفراد البيت العلوى ،
وفيهما يقول :

أَتَانِي الْبَشِيرُ بَأَنَّ قَدْ رُزِقْتَ غَلاماً فَأَهْجَنِي مَا ذَكَرْتُ
فَعَمَّرَكَ اللَّهُ حَتَّى تَرَا هَ قَدْ قَارَبَ الْخَطُوبَ مِنْهُ الْكِبَرُ
وَحَتَّى تَرَى حَوْلَهُ مِنْ بَنِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَبَنِيهِمْ زُمَرُ
وَأَوْزَعَكَ اللَّهُ شُكْرَ الْعَطَاءِ فَإِنَّ الْمَزِيدَ لَعَبْدٍ شُكْرُ
وَصَلَّى عَلَى السَّلَفِ الصَّالِحِ بَيْنَ مِنْكُمْ وَبَارَكَ فِيمَنْ غَبَرَ

وكان يؤذى نفسه إبداءً شديداً أن يقدم شعره أحياناً لبعض الرؤساء أو بعض
رجال الدولة فلا يأبه له أو لا يعطيه ما يستحقه ، وتصادف أن أفراداً مختلفين وقفوا
منه هذا الموقف في صور مختلفة ، فعزّت عليه نفسه وكرامته ، وأنشأ يقول :

وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُكُمْ جَمِيعاً فَمَا مِنْكُمْ عَلَى شُكْرِ حَرِيصُ
وَأَرْخَصْتُ الثَّنَاءَ فَعَفَّتْهُ وَرَبَّتْهَا غَلا الشَّيْءُ الرَخِيسُ
فَعَفْتُ نَوَالِكُمْ وَرَغِبْتُ عَنْهُ وَشَرُّ الزَّادِ مَا عَافَ الْخَصِيسُ^(١)
ولعل شخصاً لم يؤذ نفسه وكبرياه كما آذاه المعلّى بن أيوب أحد قواد الجيش ،
ولعل ذلك ما جعله يخصّه ببيتين كأنهما سَهْمَانِ مُصْنَمِيَانِ ، إذ يقول فيه :

لَعُمْرُ أَبِيكَ ، مَا نُسِبَ الْمَعْلَى إِلَى كَرَمٍ وَفَى الدُّنْيَا كَرِيمُ
وَلَكِنْ الْبِلَادُ إِذَا اقْشَعَرَّتْ وَصَوَّحَ نَبَتْهَا رُغْمَى الْهَشِيمِ^(٢)

وكان يحسّ فقدّه لبصره إحساساً عميقاً ، ولكن ذلك لم يَكْسِرَ نفسه ولا
أصابه بهوان ، إذ نراه يُدَلُّ بأن غيره من المبصرين يستمدُّون علمهم من الكتب
المخلّدة ، أما علمه فدَفَتَرُهُ الْقَلْبَ وَحَبَّرَهُ السَّمْعَ ، ويعتذر اعتذارات طريفة
عن أنه لا يستطيع شيئاً إلا بغيره كما نرى في مثل قوله :

(١) الخصيص : من الخصاصة ؛ وهى الفقر
(٢) اقشعرت : أجدبت . وصوّح : ييس .
والاحتياج .

لئن كان يهدينى الغلام لِيُجْهَتِي وَيَقْتَادِنِي فِي السَّيْرِ إِذْ أَنَا رَاكِبٌ
لَقَدْ يَسْتَضِيءُ الْقَوْمُ بِي فِي أُمُورِهِمْ وَيَخْبُو ضِيَاءُ الْعَيْنِ وَالرَّأْيِ ثاقِبٌ

وهو كثير السخرية في أشعاره . وله مداعبات ومجاوبات تدل على بديهة
حاضرة حضوراً شديداً ، وكثير منها كان يدور بينه وبين أبي العيناء الضرير
ويُرَوَّى أنه قال له : إنني ولدت وقت طلوع الشمس ، فقال له توأ : لذلك خرجت
مُكْنِدياً (شحاذاً) لأنه وقت انتشار المساكين . وله غزل بارع من مثل قوله :

أَلَمْ تَبْنَا يَوْمَ الرَّحِيلِ اخْتِلَاسَةً فَأَضْرَمَ نيرانَ الهوى النَّظْرُ الْخَلْسُ (١)
تَأَبَّتْ قَلِيلًا وَهِيَ تُرْعَدُ خِيفَةً كَمَا تَتَأَبَّى حِينَ تَعْتَدِلُ الشَّمْسُ
فَخَاطَبَهَا صَمْتِي بِمَا أَنَا مُضْمِرٌ وَأَنْبَسْتُ حَتَّى لَيْسَ يُسْمَعُ فِي حِسِّ (٢)
وَوَلَّتْ كَمَا وَلَّى الشَّبَابُ لِطِيَّةٍ طُوتَ - دُونَهَا كَشْحًا عَلَى نَفْسِهَا - النَّفْسُ

والقطعة بديعة وتدل على رفاقة الحس ودقة الشعور وخصوصية التفكير ،
وكأن البصير روى لنا قصة لاجرده خطرات في الحب والوجد . وكان يشارك أحياناً في
الخمير والمجون واللهو ، وله دعاة نظمها وهو يريد الحج ، صور فيها نفسه أَلَمَ بالكوفة
والأديرة القائمة حولها في الحيرة ، فتازعته نفسه أن يشرب في أحد الأديرة ويتزوّد
من خمرها ما يكفيه حتى العودة ، فقال لصاحبه : حُطَّ أَثْقَالُنَا ، وسار الناس
وأقاما ، يقول :

خَرَجْنَا نَبْتَغِي مَكَةَ حُجَّاجًا وَزُورًا
فَلَمَّا شَارَفَ الْحَيْرَ ةَ حَادِي جَمَلِي حَارًا
فَقُلْتُ : أَحْطُطُ بِهَا رَحْلِي وَلَا تَحْفِلْ بَعْنِ سَارَا
فَقَضَّيْنَا لُبَانَاتٍ لَنَا كَانَتْ وَأَوْطَارَا
وَمَا ظَنَّاكَ بِالْحَلْفَا ءِ إِنَّ أَشْعَلْتَهَا نَارَا

ويقال إنه تغيّر عقل أبي على البصير قبل موته بقليل ، وكان يثوب إليه عقله ،
فأبى على نفسه وما أصابه من خرف الشيخوخة ، وفي ذلك يقول :

خبّاً مصباحُ عقلِ أبي عليٍّ وكانت تستضيء به العقولُ
إذا الإنسان مات الفهم منه فإن الموت بالباقي قليل
ولعل في كل ما ذكرناه من شعره ما يدل على حذقه حقاً وأنه كان خصب
الذهن . وكان لا يزال يعرض على معاصريه ما يزيدهم به إعجاباً وبشعره
استحساناً .

أحمد^(١) بن أبي طاهر

اسم أبي طاهر طيفور ، وأحمد ابنه رُزق به في بغداد لسنة ٢٠٤ ، وأصل
الأسرة من مَرّو ، ويقال إنها من سلالة ملوك خراسان . أخذ عن علماء بغداد ،
حتى إذا استوى عوده جلس للتعليم في بعض الكتاتيب ، ثم ترك التعليم واحترف
الوراقة ، مما جعله يقرأ كثيراً من مصنفات عصره والعصر السابق له ، وسرعان ما
تحوّل إلى مؤرخ كبير ، كما يشهد بذلك كتابه تاريخ بغداد في أخبار الخلفاء
والأمراء وأيامهم ، وهو أحد المصادر الأساسية التي اعتمد عليها الطبري في تأليف
كتابه تاريخ الرسل والملوك : أهم مرجع تاريخي للخلفاء حتى أوائل القرن الرابع
الهجري . وله بجانب ذلك كتاب المنثور والمنظوم الذي يشتمل على أروع الرسائل
المدوّنة في العصر . وله كتاب فضائل الورد على الزجس وكأنه صنعه ردّاً على ابن
الرومي وأمثاله ممن كانوا يفضلون الزجس على الورد . وكان يتشيع ، ولكن ليس
لدينا من شعره الشيعي سوى القصيدة التي أشرنا إليها في غير هذا الموضع والتي
رثى بها يحيى بن عمر الطالبي المقتول بالكوفة في زمن المستعين . ويبدو أنه
كان إمامياً يأخذ بالتيقّة ، ولا يجحد بأساً في مديح الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم ،

٢١١ / ٤ ومعجم الأدباء ٨٧ / ٣ وكتاب
الزهرة لابن داود (انظر الفهرس) وديوان
المعاني ٤٨ / ١ ، ٩٤ والموشح للمرزباني
ص ٣٥١ .

(١) انظر في أخبار أحمد بن أبي طاهر
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٦ ومروج
الذهب ٦٤ / ٤ والفهرست ص ٢١٥ حيث
ذكر له ثمانية وأربعين كتاباً وتاريخ بغداد

وفتحوا له جميعاً أبوابهم . وربما كان من أهم الأسباب في فتحها كتابه السالف « تاريخ بغداد » الذي أرخ فيه للدولة وخلفائها . وفتح له كتاب المشور والمنظوم أبواب الأدباء لا في بغداد وحدها ، بل أيضاً في سامراء طوال اتخاذها حاضرة للخلافة . ويجانب تصنيفاته كان شاعراً بارعاً ، ولكن قبل أن نعرض لشعره يحسن أن نقف عند ما قاله بعض معاصريه من أنه « كان مؤدّب كُتّاب عامياً ثم تخصص وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي ببغداد ، وليس فيمن شهر بمثل ما شهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصنيفاً منه ولا أبلد علماً ولا ألحن ، قال : واقد أنشدني شعراً يعرضه على في إسحق بن أيوب لحن في بضعة عشر موضعاً منه وكذا قال لي البحترى فيه » . وشهادة البحترى فيه مردودة ، لأنهما كانا يتهاجيان ولا يرضى كل منهما عن صاحبه ، ونفس أبي طاهر — كما في كتاب الموشح للمرزباني — يصف البحترى باللحن في شعره . وبالمثل شهادة هذا المعاصر له مردودة لأنه كان يخاصمه على ما يبدو . وليس في شعره الذي بين أيدينا ما يصور لهذا اللحن ، ونرى معاصريه ومن جاءوا بعدهم يشهدون له بالفصاحة والبلاغة ، فالخطيب البغدادي — ومثله ياقوت — يقولان : « كان أحد البلغاء الشعراء الرواة » . وشعره يشهد ببلاغته ، وأخباره تدل على إعجاب معاصريه به وبشعره . وكان يغدو به ويروح على الوزراء ، فيُسبغون عليه جوائزهم من مثل قوله في أبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد يهنئه بأحد أعياد النيروز أوائل الربيع :

أبا الصَّقَرِ لا زالت من الله نعمةٌ تجدُّها الأيامُ عندك والدَّهرُ
ولا زالت الأعيادُ تمضي وتنقضي وتبقى لنا أيامُك الغرُّ الزهرُ
فإنك للدنيا جمالٌ وزينةٌ وإنك للأحرار دُخْرٌ هو الدُّخْرُ
رأيت الهدايا كلها دون قدركم وليس بشيء عند مقداركم قَدْرُ
فأهديت من حلَى المديح جواهرًا مفصَّلةٌ يزهى بها النظم والنثرُ

وكانوا يتقدمون للوزراء وعلية القوم في أعياد النيروز بالهدايا كل حسب قدرته من الجواهر أو من الرياحين ، ورأى ابن أبي طاهر أن خير ما يهديه لإسماعيل بن بلبل عقود أشعاره المرصوفة بالجواهر والآلىء . والأبيات قوية جزلة مصقولة ، وتدل

على أن يندّ شاعر صَنَاع هي التي كتبتها وصاغتها هذه الصياغة المتينة . وأروع من هذه القصيدة، قصيدته في أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر نائب أخيه محمد في حكم بغداد ، ثم حاكمها بعد وفاته سنة ٢٥٢ ، وهي تلتقي بقصيدة تُروى لابن الرومي سبق أن أنشدنا منها في ص ٣١٠ بعض أبيات . ولعل القصيدتين اختلطتا في أذهان الرواة ؛ ومن قصيدة ابن أبي طاهر في مديح أبي أحمد كما جاءت عند بعض الرواة :

مَنْ لَمْ يَكُنْ حَذِرًا مِنْ حَدِّ صَوْلَتِهِ لَمْ يَدْرِ مَا الْمَرْعِجَانُ : الْخَوْفُ وَالْحَذَرُ
حُلُّوْ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَبْعَثْ مَرَاتِهِ فَإِنْ أَمَرَ فَحُلُّوْ عَنْده الصَّبْرُ
سَهْلُ الْخَلَائِقِ إِلَّا أَنَّهُ خَشِنُ لَيْنُ الْمَهْزَةِ إِلَّا أَنَّهُ حَجَرُ
إِذَا الرِّجَالُ دَجَّتْ آرَاوَهُمْ وَعَمَّوْا بِالْأَمْرِ رُدُّ إِلَيْهِ الرَّأْيُ وَالنَّظَرُ
الْجُودُ مِنْهُ عِيَانٌ لَا ارْتِيَابَ بِهِ إِذْ جُودُ كُلِّ جَوَادٍ عَنْده خَبَرُ

وبلغ من إعجاب القدماء بهذا المديح أن قال بعض أدبائهم : لو استعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر . وهي أبيات - إن صحَّ أنها لابن أبي طاهر - تدل على بصر بالشعر وروعة فنونه البديعية ، وله رسالة في سرقات البحري تدل من بعض الوجوه على ثقافته الشعرية ، بل لقد اتسعت دراسته للشعر العربي على نحو ما يصور ذلك كتابه المنظوم والمنثور . وقد مضى يُحْكَمُ في القصيدة التقسيم كما في الأبيات الأربعة الأولى ، كما أحكم الطباق والتقابل بين المعاني والألفاظ على نحو ما يتضح في الأبيات الأربعة الثانية . وكان يُحْكَمُ - بجانب المديح - الهجاء اللاذع الذي يلسع كما تلسع الإبر دون فحش من مثل قوله في أبي العيناء الضرير نديم المتوكل والخلفاء وضحكهم بإجاباته ونوادره :

كُنَّا نَخَافُ مِنَ الزَّمَا نَ عَلَيْكَ إِذْ عَمِيَ الْبَصَرُ
لَمْ نَدْرِ أَنَّكَ بِالْعَمَى تَغْنَى وَيَفْتَقِرُ الْبَشَرُ
وكان يتعرض أحياناً للمبرّد ، فيخشي معرّة لسانه ، ويقال إنه استقبله في

يوم صيف شديد الحرارة فأكرمه وبالغ في إكرامه ، فأطعمه غذاء طيباً ، وسقاه بارداً ، وأخذ يباسطه في الحديث ، مؤملاً أن يمتدحه ببعض شعره ، وإذا هو ينشده :

ويوم كحرّ الشّوقِ في صدرِ عاشقٍ على أنّه منه أحرُّ وأزْمَدُ
ظلمت به عند المبرّد قائلاً فما زلتُ في ألفاظه أتبرّد^(١)
فقال له المبرّد : قد كان يسعك إذا لم تحمد أن لا تدم ، ومالك عندى جزاء
إلا أن تغربّ عن عيني . فتركه وهو يضحك من أثر دعايته في نفس المبرّد
شيخ العربية لعصره . وأنشد له ابن داود طائفة كبيرة من غزلياته ، من مثل
قوله :

حبيبي حبيبٌ يكمّ الناسُ أنّه لنا - حين ترمينا العيونُ - حبيبٌ
يباعدني في الملتقى وفؤادُه - وإن هو أبدى لي البعادَ - قريبٌ
ويُعرض عني والهوى منه مقبلٌ إذا خاف عيناً أو أشار رقيبٌ
فتخرسُ منا ألسنٌ حين نلتقى وتنطق منا أعينٌ وقاوبٌ
فهما يتناكران أمام الناس ، وكل منهما شديد الكسلف والولع ، يتجرع
غصص الهوى وآلامه ، ولا يستطيع البوح بما في ضميره ، وهما لذلك يصمطنعان
التحفظ والاحتشام ، وقلوبهما تحترق وجداً ، وقد خرست منهما الألسنة ونطقت
العيون بمكنون الضمير . وهو مع ذلك يكثر من الاختلاف إلى دارها ويجلس مولاهما
وليس من رسل بينه وبينها سوى لغة العيون ، يقول :

إذا ما التقينا والوشاةُ بمجلسٍ فليس لنا رُسُلٌ سوى الطّرفِ بالطّرفِ
فإن غفلَ الواشون فُزْتُ بنظرةٍ وإن نظروا نحوى نظرتُ إلى السّقفِ
فهو يسارقها النظر ويختلس منها النظرة في الحين بعد الحين ، حتى لا يفتضح
أمرهما للواشين ويجعلهم يقفون على حبه للمرأة وحبها له وأنها لا تفرط فيه ، بل
شديدة الحرص عليه . ومع ذلك يجري بينهما حديث صامت لا أول له ولا آخر

(١) قائلاً : مستريحاً وقت القيلولة ؛ وهي

عن عذابهما في الحب وما يصطليان من ناره ، على الرغم من الرقباء والوشاة ،
يقول :

عرفتُ بالسَّلام عَيْنَ الرَّقِيبِ وَأَشَارَتْ بِلَحْظِ طَرْفٍ مُرِيبٍ
وَشَكَتْ لَوْعَةَ النَّوَى بِجَفَوْنٍ أَعْرَبَتْ عَنْ ضَمِيرِ قَلْبٍ كَثِيبٍ
رُبَّ طَرْفٍ يَكُونُ أَفْصَحَ مِنْ لَفْظٍ وَأَبْدَى لِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ

فهى تلفته بلحظها الفاتن إلى الرقيب ، وتشكو لوعة النوى وحرقة الحب
بعيونها ، واصلة نظرها الشَّزَرَ إلى الرقيب بنظرها اللين إليه مُعْرِبة عن ضميرها
وما يخفى في صدرها من الحب له والكلف به . وهو يحدثها بنفس اللغة ، فيفهم
قلبها عن قلبه وضميرها عن ضميره ، وتبادلها بنفس اللغة أنها على الوفاء له مقيمة ،
يقول :

أَلَا حَظُّهَا خَوْفَ الْمَرَاقِبِ لِحِظَةً فَأَشْكُو بِطَرْفِي مَا بِقَلْبِي مِنَ الْوَجْدِ
فَتَفْهَمُهُ عَنْ لَحْظٍ عَيْنِي بِقَلْبِهَا فَتَوَى بِطَرْفِ الْعَيْنِ أَنَّى عَلَى الْعَهْدِ

فهما دائماً يتكلمان بلغة الطرف ، لغة يصمت فيها اللسان ، وتنطق القلوب
بما تضمنت من الوجد ولواعته ، وهما يتغامزان بالنظرات ويتلاحظان ، وكأنما
لا يتكلمان بتلك اللغة الصامتة الفصيحة فقط بل يتراسلان بها ويتكاتبان
مكاتبات حارة ، يقول :

كُتِبَتْ إِلَى الْحَبِيبِ بِكَسْرِ عَيْنِي كِتَابًا لَيْسَ يَقْرَأُهُ سِوَاهُ
فَأَخْبِرْنِي تَوَرُّدُ وَجَنَّتِيهِ وَكَسْرُ جَفْوَنِهِ أَنْ قَدْ قَرَأَهُ

ولعل في كثرة رسوم ابن أبي طاهر لهذا الموقف ما يدل على دقة حسه من طرف
وثناء خواطره وأفكاره من طرف آخر ، وفي كثير من هذه الرسوم براعة في التصوير
كما نرى في البيت الأخير ، ومن بدیع تصويره قوله في إحدى المحجَّبات اللاتي
شُغِفَ بهن :

حِجَابٌ فَإِنْ تَبَدُّو فَلِلدَّمْعِ جَسُولَةٌ يَكُونُ لَهُ مِنْ دُونِ رُؤْيَيْهَا سِتْرًا

فهو دائماً منها في حجاب حين لا يلقاها . وحجاب من دموعه حين يلقاها ، وكأنها محجبة دائماً ، وراء أستار من الحجاب صفيقة وأستار أخرى رقيقة من الدموع الغزار . ويحدثنا ياقوت نقلاً عن أحد الرواة أنه كان يلمُّ ببعض الأديرة أحياناً في طريقه إلى سامراء أو بعد رجوعه منها ، ويُششد له خميرة ، ويبدو أن الخمر لم تكن من متاعه إلا في بعض أحوال عارضة . وما زال يُعنى بالتصنيف ونظم الشعر حتى توفي سنة ٢٨٠ للهجرة .

ابن^(١) دريد

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، من أزد عُمان ، كانت أسرته على شيء من اليسار ، وقد استوطن أبوه البصرة ، وفيها وُلد له سنة ٢٢٣ وعُنى عمه الحسين بتعليمه فألحقه منذ نعومة أظفاره بالكتاتيب ثم بملقات العلماء ، وكانت له ذاكرة عجيبة لا يكاد شيء يسمعه يفلت منها ، مما أعدّه لأن يكون من كبار اللغويين في عصره . وقد أكبَّ على محاضرات الرياشي وأبي عثمان الأشنّاندي وأبي حاتم السجستاني وغيرهم من علماء البصرة ، فأخذ كل ما عندهم . ولما استباح الزنج البصرة سنة ٢٥٧ ونكّلوا بأهلها تنكيلاً شديداً فترَّ مع عمه الحسين إلى عُمان ووطن قبيلته الأزد ، وظل بها اثني عشر عاماً إلى أن قضى الموفق على ثورة الزنج قضاء نهائياً ، حينئذ يعود إلى البصرة حين عاد إليها الأمن والسلام . ويظل بها إلى أن يستدعيه عبد الله بن محمد بن ميكال وإلى الأهواز وفارس لتأديب ابنه أبي العباس إسماعيل وثقيفه . ويلجى الدعوة ، ويرحب به الوالي ترحيباً عظيماً ، ويقلده ديوان إمارته فارس وتقبل عليه الدنيا إذ تنهال عليه الأموال . وينظم في الوالي وابنه قصيدته الطويلة المشهورة باسم المقصورة ، التي عرضنا لها في حديثنا عن الشعر التعليمي وتطير شهرتها وتتكاثر شروحها ، وتُطَبِّعُ في عصرنا بشرح التبريزي وبشروح

تاريخ الطبري للهمداني ص ٧٦ والوافي بالوفيات
للسفدي ٢ / ٣٣٨ وروج الذهب للمسعودي
٤ / ٢٢٩ وطبقات الشافعية ٣ / ١٣٨ والنجوم
الزاهرة ٣ / ٢٤٠ وروضات الجنات ٦٠٥ وقد طبع
ديوانه في القاهرة .

(١) انظر في ترجمة ابن دريد وأشعاره
معجم الشعراء ص ٤٢٥ وتاريخ بغداد ٢ / ١٩٥
وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٨ / ١٢٧ ونزهة
الألباء . والفهرست ص ٩٧ وشذرات الذهب
٢ / ٢٨٩ ولسان الميزان ٥ / ١٣٢ وتكملة

أخرى وتكثر تخميساتها على مرّ القرون . وفي أثناء عمله عند ابن ميكال أُلّف الجُمهرة لابنه لإسماعيل ، وهي معجم لغوي بدأ فيه على طريقة معجم العين المنسوب إلى الخليل بالثنائي ثم بالثلاثي ثم بالرباعي ثم بملحقه ثم بالخماسي والسداسي وملحقاتهما ، وجمَعَ النوادر في باب منفرد . أملاها أولاً في فارس ، ثم أملاها في البصرة ثم في بغداد ولذلك اختلفت نسخها اختلافات كثيرة . وكان من أهم ما أُلّفه لإسماعيل ، كى يحسن العربية ، كتاب الأربعين حديثاً ، قصّ فيه حكايات عربية قديمة تقوم على الحب غالباً كما تقوم على التاريخ ، ويقول الحُصْرى عن هذه الأحاديث إنها هي التي ألهمت بديع الزمان مقاماته ^(١) . ويبدو أنه أُلّف عند ابن ميكال كثيراً من مصنفاته ، وما نُشر له منها في عصرنا كتاب الاشتقاق وكتاب السَّرَج واللجام وكتاب صفة السحاب والغيث وكتاب الملاحن ويشتمل على ألغاز لغوية . وما زال يعيش في رحاب ابن ميكال حتى عزّلا عن فارس ، فانتقل إلى مسقط رأسه ، ثم تركها إلى بغداد سنة ٣٠٨ وكان صيته وشهرته العلمية سبقاه ، فاستقبلته بغداد استقبالا حافلا ، وأجرى عليه المقتدر خمسين ديناراً شهرياً إلى أن توفي سنة ٣٢١ عن نحو ثمانية وتسعين عاماً . وأهم مدائحه وأشعاره مقصودته التي ذكرناها آنفاً ، وقدم حكمةً لنا في حديثنا عن الشعر التعليمي ، ونقف منها الآن عند مديحه للأمير عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبي العباس لإسماعيل ، وفيهما يقول :

تلافيا العيش الذي رَنَقَهُ صَرَفُ الزمان فاستساغ وَصَفَا ^(٢)
 وأجريا ماء الحيا إلى رَغَدًا فاهتزَّ غُصْنِي بعد ما كان ذَوَى ^(٣)
 إن ابن ميكال الأَمِيرَ انتاشني من بعد ما قد كنت كالشيءِ اللَّقَا ^(٤)
 ومَدَّ ضَبْعِي أَبُو العباسِ من بعد انقباض الدَّرْعِ والباعِ الْوَرَى ^(٥)

(٤) انتاشني : تناولني . واللقا : المرى في عرض الطريق لا يعبأ به .

(٥) الضبع : وسط العضد . ومد ضبعيه :

بسطهما ، كناية عن اتساع حاله . وانقباض

الدرع والباع كناية عن ضيق الحال .

(١) انظر زهر الآداب ١ / ٣٠٧ وكتابتها الفن ومذاهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف -

الطبعة السادسة) ص ٢٤٨ .

(٢) رنقه : كدّره .

(٣) الحيا : الغيث والخصب .

ذاك الذى ما زال يسمو للعلا بفعله حتى علا فوق العلا
لو كان يَرْقى أَحَدٌ بجوده ومجده إلى السماء لارتقى
ما إن أتى بحرَ نَدَاهُ مُعْتَفٍ على أوارى عَلمٍ إلا ارتوى^(١)
نَفْسِي الفِدَاءُ لَأَمِيرٍ ، وَمَنْ تحتَ السماءِ لَأَمِيرِ الفِدا

وطبىعى أن يُعْنَى ابن دريد في هذا المديح بإدماج شيء فيه من الألفاظ الغريبة ،
لأنه أراد بالقصيدة أن تكون متنناً لغوياً ، وتحققت له إرادته ، لا بما وضع فيها
من ألفاظ غريبة فحسب ، بل أيضاً بما حشد فيها من الألفاظ المقصورة . ومع
ذلك فقد استطاع فيها أن يوازن بين ما جمع من الألفاظ الغريبة ولغة الشعر العذبة ،
فاختار لها أسلوباً وسطاً بين الإغراب والسهولة ، كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا
الموضع . وهذه الأبيات نفسها تصور هذا المسلك . فهى لا تتعمق في الإغراب ،
بل تظل فيها نضرة الشعر وجماله . وله وراءها مدائح مختلفة لا يغمسها في الغريب
والأفاظه من مثل قوله في أبى أحمد حُجْر الجوىمى أحد رجالات فارس النابيين :

حُجْرُ بن أحمد فارغُ الشرف الذى خضعتُ لعزته طُلَى الأعناق^(٢)
انظرُ أنامله فلسنَ أناملاً لكنهن مفاتحُ الأرزاقِ
وانظرُ إلى النور الذى لو أنه للبدر لم يُطْبَعُ بِرَيْنٍ محاقِ^(٣)

وكان يجيد فن الرثاء ، وله مرثية بديعة في عمه الحسين بن دريد الذى تعهد
تربيته ، ومن خير مراثيه مرثية في محمد بن جرير الطبرى علّم الدراسات الدينية
والكتابات التاريخية في عصره ، وفيها يقول :

إن المنية لم تُتْلَفْ به رجلاً بل أتلفتُ علماً للدين منصوباً
كان الزمان به تصفو شاربه والآن أصبح بالتكدير مَقْطوباً^(٤)
كلا وأيامه الغرّ التى جعلتُ للعلم نوراً وللتقوى محاربساً

(١) الرين : الأذى . يطبع : يدنس .

(٢) مقطوباً : مزوجاً .

(١) الندى : الكرم . المعتق : طالب النوال

والأوارى : النار . العلم : الجبل .

(٢) طلى : جمع طلية ، وهى أصل العنق .

وتُنسب له قصيدة في ذكرى الرسول عليه السلام نشك في نسبتها إليه لأن قصائد هذه الذكرى إنما ذاعت وشاعت في عصر متأخر . وله قصيدة طويلة في رثاء الإمام الشافعي ، أو بعبارة أدق في بيان مكانته العلمية الخطيرة ، وفيها يقول :

لرأي ابنِ إدريس ابنِ عمِّ محمدٍ ضياءٌ - إذا ما أظلم الخطبُ - صاع
إذا المعضلاتُ المشكلاتُ تشابهتُ سها منه نور في دُجَاهُنَّ ساطع
أبى الله إلا رَفَعَهُ وعلوه وليس لما يُعليه ذو العرش واضع

وهي قصيدة بديعة . وبحقَّ يقول المسعودي إنه كان يذهب في الشعر كل مذهب ، فطوراً يحزل وطوراً يرقّ ، وطوراً يصبح بدويّاً متعمقاً في الفلوات وفي وصف الإبل والخيل ، وطوراً يصبح حضريّاً يصف الرياض والزهور ، ومن قوله في النرجس :

عيونٌ ما يلمّ بها الرُقَادُ ولا يمحو محاسنها السُّهَادُ
لها حَدَقٌ من الذهب المصنُوق صياغةً مَنْ يدين له العباد
وَأَجْفَانُ من الدرّ استفادتْ ضياءً مثله لا يستفاد

ومن تمام هذا الإحساس الحضاري عنده أن نجدّه يتغزل أحياناً غزلاً رقيقاً ، من مثل قوله واصفاً مدى فتنة الناس بمحبوبته ، حتى كأنهم جميعاً شركاء له في الحب وضنّاه :

أعاد من أجلك لا من ضنّي وسائر العوَاد - أشراكي
ولست أشكوك إلى عائدٍ أخاف أن أشكو إلى شاكي

فالناس يزورونه من ضنّاه في حب صاحبتّه لا من ضنّا مرضٍ ألمّ به ، وهو لا يشكو لهم من عذابه في حبها ولا من وصبته فيه ، لأنه يراهم جميعاً مثله ، يعانون ما يعانيه من لوعات الحب وآلامه . وكان يتورط في الخمر وإثمها ، كما كان يتلق بالغناء وآلاته ، حتى ليقول بعض معاصريه ممن كانوا يزورونه في شبخوخته إنه كان يستحي مما يرى من الشراب والعيدان المعلقة ، ومن قوله يصف الخمر قبل المزج وبعده :

وحمرء قبل المزج صفراء بعده أنت بين ثوبني نرجس وشقائق
حكّت وجنة العشوق صرّفاً فسَلَطُوا عليها مزاجاً فاكتست لوناً عاشق
ويقال إنه عرض له في أواخر عمره فالج (شلل) وسقى الدرياق فبرئ ،
ورجع إلى أفضل أحواله وإملائه على تلامذته . ثم مرض به ثانية ، وظل سنتين
توفى في نهايتهما ، وتصادف أن كانت وفاته في نفس اليوم الذي توفى فيه أبو هاشم
الجبائي المتكلم المعتزلي المشهور ، ودُفنا معاً ببغداد في مقبرة الخيزران .

٥

شعراء الهجاء

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن شعر العصبيات القبلية خبت ناره
فيه ونحبت معه نار النقائص، وحل محله شعر شعوبي أحياناً . ولكن الكثرة الكثيرة
كانت هجاءً شخصياً يتعرض للأعراض مزرّياً بالمهجوّين محقراً لهم ومهوّناً . ونستطيع
أن نطرد هذا الحكم في العصر العباسي الثاني، مع ملاحظة أن الشعر الشعوبي خبت
ناره بدوره . ويبدو أن الفرس هم الذين كانوا يمدون تلك النار بوقود جزل ، فلما
ضعف شأنهم في العصر وحل الترك محلهم في السلطان ولم يعد لهم حول ولا قوة خفّت
حدة شعوبيتهم ولم يعد شعراؤهم يتغنون بها إلا نادراً . وحتى هذا النادر لم تحتفظ
به المصادر إلا قليلاً جداً، لأنه لم يكن لشعراء نابيين إنما كان لشعراء مغمورين قلما
عنّى بهم أحد مثل محمد بن أبان الذي كان يكثر من الافتخار بالعجم^(١)، ولم يبق
من افتخاره شيء . وبذلك كان الهجاء الشخصي هو اللون العام في العصر ، وسبق
أن لاحظنا في كتاب العصر العباسي الأول أن شعراءه أكثروا في هجائهم من
القول الفاحش المقذع في الأمهات والأخوات وظل ذلك في هذا العصر وظل معه
ذكر العورات مما ينبو عن الذوق هو وكل ما يتصل به من بداعة، لن نقف عندها،
إنما نقف عند الهجاء غير البذيء، وكانت نيرانه مضطربة طوال العصر ، فالشعراء

(١) معجم الشعراء ص ٣٧٩ .

يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو قصر في عطائهم ، وكذلك كلما لقيهم قائد أو وال أو كاتب أو شخص نابه أو عالم لقاء غير حميد . وكثيراً ما كانت تجربتهم المنافسة إلى الدخول في معارك هجاء حامية الوطيس . ومرة بنا في غير هذا الموضوع ، ما قيل عن البحترى من أنه هجا كثيراً من ممدوحيه ، وبالف بعض القدماء فقالوا إنه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفتان هما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء^(١) . وإذا صحح هذا عن البحترى الذي كانت تفتش له الأبواب الموصدة ، وكان يمشى — بفضل جوائزه الكثيرة — في موكب من عبيده فضلاً عما كان يملك من الضياع فإن كثيرين غيره تورطوا في الهجاء للرؤساء بأكثر من تورطه . ومرة في حديثنا عن ابن الرومي إكثاره من الهجاء ونفوذه فيه إلى لون من التصوير الهزلي الساخر يكبر فيه عيوب المهجوين الجسدية والمعنوية . وابن الرومي والبحترى أكبر شعراء العصر ، وعلى غرارهما كان الشعراء جميعاً يستهيمون في هذا الفن ، وكثيراً ما كانوا يخصّون به الوزراء حين يحرمونهم الخاتمة ، ولن ينفع الوزير عندهم أن يكون ممدحاً ، بل لعل ذلك أدعى إلى أن يسلط عليه الشاعر سهام هجائه ، من مثل قول دندن في عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وكاتبه ابن يزداد^(٢) :

وإن ابن يزداد لأحولُ حولُ ولكنه يقرأ (إذا الشمس كورت)
فقل لعبيد الله أحيت دولتي مكاسير زمني (عطلت) فتحيّرت
وأنت - إذا مئزت - أبلنا منهم فصوتكم : حى المنازل أفقرت

ومجئته بالآية القرآنية وكلمة (عطلت) الواردة في سورة التكوين يريد أن يشير بذلك إلى خراب الدولة ، لأن السورة في وصف نهاية العالم وما يكون بعد ذلك من البعث والنشور . وكان الشعراء كثيراً ما يتعرضون لأحمد بن إسرائيل وزير المعتز بالهجاء من مثل قول محمد بن مكرم^(٣) :

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

(١) الموشع للمرزباني ص ٣٣٦ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٦ .

إِنْ زَمَانًا أَنْتَ مُسْتَوَزِرٌ فِيهِ زَمَانٌ عَسِيرٌ أَنْكَدُ
يَذِمُّكَ النَّاسُ جَمِيعًا فَمَا يَلْقَاكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ يَحْمَدُ

ولما انتكست الوزارة في عصر المقتدر وكثرت الرشوة وعم الفساد في الحكم وعم معه الظلم كما عمت مصادرة الأموال، توالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً، ومنهم من تولّى الوزارة مرتين وثلاثاً، وكل وزير يصادر الذى قبله ويعمل كل ما فى وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدولة، لما حدث كل هذا الانتكاس لأداة الحكم كثر هجاء الوزراء من مثل قول بعضهم فى هجاء الخاقانى الوزير^(١):

للدواوين - مذ وليت - عويلٌ ولمال الخراج سقمٌ طويلٌ
يتلقى الخطوبَ حين أَلَمْتُ منك رأى غثٌ وعقلٌ ضئيلٌ
إِنْ سَمَنْتُمْ مِنَ الْخِيَانَةِ وَالْجَوْرِ فَلِلْإِرْتِفَاعِ جِسْمٌ نَحِيلٌ

وكان الخاقانى معروفاً بسوء السيرة والتدبير، وأخذ الرشوة ممن يولّيهام الأعمال، ولذلك كثرت فى أيامه الولاية والعزل، وكان الدولة أصبحت دولة لصوص وقطّاع طرق. ومن هؤلاء اللصوص وقطّاع الطرق ابن البريدى الوزير بأخرة من العصر وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني من قصيدة طويلة^(٢):

يَا سَاءَ اسْقَطَى وَيَا أَرْضَ مِيدَى قَدْ تَوَلَّى الْوِزَارَةَ ابْنُ الْبَرِيدَى
هَذَا رَكْنُ الْإِسْلَامِ وَانْهَتْكَ الْمَلَاكَ وَمَحَّتْ^(٣) آثَارَهُ فَهُوَ مُودَى
فَاسْتَهْلَى يَا عَيْنُ بِالْدمْعِ سَحَاً وَقَلِيلٌ أَنْ تَذُرْفَى وَتَجُودَى

ومرّ بنا آنفاً أن المنافسة بين الشعراء كثيراً ما دفعتهم إلى التهاجى، ومن تعرّضوا له بالهجاء كثيراً. مروان بن أبى الجنوب شاعر المتوكل، إذ كانوا ينفسون عليه الجوائز الطائلة التى كان يخصّه بها المتوكل، حتى من كانت تصلهم منه جوائز مماثلة، وكأنه تحاسد أهل الحرفة الواحدة، على نحو ما حدث بينه وبين على بن

(٣) محت : درست .

(١) الفخرى ص ١٩٨ .

(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ١١٣ .

الجهنم ، وكان أكثر توقراً منه في هجائه ، إذ لم يكن يُسِفُ فيه إلى ذكر الأعراض .
ويتهاجى مع أبي نعامه الدقيقى ، ويكويه بمثل قوله في نعت شعره (١) :

رَأَيْنَا الْبَرْدَ مُشْتَدًّا فَسَاءَ لَنَا عَنْ الْقَصَّةِ
فَقَالُوا مُنْشِدٌ يُنْشِدُ شِعْرَ ابْنِ أَبِي حَفْصَةَ

وكان أبو نعامه كما مرَّ بنا شيعياً وكان خبيث اللسان ، فقصر شعره على هجاء القواد ورؤساء الدولة في أيام المتوكل ورماهم بأشنع القبائح ، وهو هجاء كانت بواعثه سياسية . وكانوا ربما يهجون بالتزندق والانحراف عن الدين والإلحاد من مثل قول الجسمَّاز في الجاحظ (٢) :

يَا فَتَى نَفْسُهُ إِلَى مِلَّةِ الْكُفْرِ تَائِقَةٌ
لَكَ فِي الْفَضْلِ وَالتَّزْهِدِ وَالنُّشْكِ سَابِقَةٌ
فَدَعِ الْكُفْرَ جَانِبًا يَا دَعِيَّ الزَّنَادِقَةِ

وهو كذب وبهتان على الجاحظ أحد المحامين عن الإسلام في عصره المدافعين المناضلين ، ولكنه الهجاء يصمُّ الناس بوصمات كاذبة افتراء وبهتاناً . ومن مثل هذا الافتراء والبهتان قول شاعر في محمد بن يزيد المبرِّد العالم النحوى المشهور (٣) :

سَأَلْنَا عَنْ ثُمَالَةَ كُلِّ حَىٍّ فَقَالَ الْقَائِلُونَ وَمَنْ ثُمَالَةُ
فَقُلْتُ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدٍ مِنْهُمْ فَقَالُوا زِدْنَا بِهِمْ جَهَالَةَ

وثُمالة هي عشيرة المبرِّد ، والبيتان يحملان تحقيراً شديداً وتهويناً بعيداً للمبرِّد وأنه خامل الذكر ، وكان قد طبَّقَ آفاق البلاد العربية شهرة في عصره وقصده الطلاب من كل بلد يحملون عنه علمه . وبلغ من شيوع الهجاء حينئذ وانتشاره في كل الأوساط أن المرأة شاركت فيه ، وكان لها قديماً مشاركة في رثاء أهلها وندبهم والتفجع عليهم والنواح ، وكذلك كان لها مشاركة في الغزل والتعبير عن عواطف الحب ومشاعره ، حتى إذا كان هذا العصر رأيناها تضيف إلى هذين الموضوعين مشاركة في الهجاء من

(٣) ديوان المعاني ١/ ١٧٨ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٧٥ .

مثل قول الخنساء جارية هشام المكفوف في أبي الشبل الشاعر الماجن ، تهون من رجولته طاعنة^(١) له في الصميم :

ما ينقضي عجبى ولا فكرى من نعجة تكنى أبا الشبل
لما اكتنيت لنا أبا الشبل ووصفت ذا النقصان بالفضل
كادت تميد الأرض من جزع وترى السماء تذوب كالمهل

وهي تصوره متمرداً على حقيقته ، فهو من النعاج ويزعم أنه من الآساد ، وكأنما الدنيا انقلبت صورها وأوشكت على الزوال ، فالأرض تميد جزعاً ، وكأن يوم القيامة حل موعده ، فالسما تذوب كالمهل أو الزيت المغلى . ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من كبار المهجائين في العصرهم الصيمري والحمدوني وابن بسّام .

الصيمري^(٢)

هو أبو العنّبس محمد بن إسحق ، أصله من الكوفة ، وتولى القضاء بالصيمرية فنُسب إليها ، وهي نهر بالبصرة عليه قرى وبلد وزروع ، قدم سامراً في عصر المتوكل فقرّبه منه واتخذته نديماً له ، لما كان يمتاز به من الفكاهة والتندير ، وكأنما أتيح له مبكراً أن يفرغ للتأليف ، إذ روى له ابن النديم في الفهرست طائفة كبيرة من المصنفات ، ونجد بينها ما يتصل بالمنادمة ، ككتب الأطعمة وكتاب الجوابات المسكتة . وكان عالماً بالنجوم ، وله فيها كتابان . ولم يكن يجمع بين الهزل والعلم ، فقط ، فقد كان يضيف إليهما الشعر ، ويقولون إنه كان خبيث اللسان ، هاجى أكثر شعراء زمانه ، ومع ذلك لم يصلنا من هجائه إلا أشعار قليلة من مثل قوله في إبراهيم بن المدبر ، وكان قد تولى الولايات الكثيرة وترأس بعض الداوين ، في سامراء وبغداد :

ومرج الذهب ٩ / ٤ ومعجم الأدباء ١٧ / ٨
والنجوم الزاهرة ٧٤ / ٣ والوفى بالوفيات
١٩١ / ٢ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٥ .

(٢) انظر في الصيمري وأخباره وأشعاره

كتاب الأغاني (طبعة السامي) ١٧٣ / ١٨

والفهرست ص ٢٢٢ وتاريخ بغداد ١ / ٢٣٨

أَسْلُ الذي عَطَفَ المُوا كَبَ بِالْأَعْنَةَ نحو بابك
وَأَذَلَّ مَوْقَى العزِيد زَ عَلَى وَقوفى فى رِحَابِكْ
وَأَرَاكَ نَفْسَكَ مالِكا مالم يكن لك فى حسابك
أَلَّا يُطِيلَ تَجَرُّعَى غُصَصَ المنيَّة من حجابك

وله خبر طويل مع البحرى هجاء فيه وسخر منه سخرية مرة ، إذ حدثت الرواة أنه كان من عادة البحرى إذا أنشد المتوكل شعره أن يتشادق ويتزاور فى مشيه مرة متقدماً ومرة متأخراً ويهز رأسه مرة ومنكببه مرة أخرى ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المتوكل ومَنْ فى مجلسه فيقول : مالكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . وكان المتوكل يضجر من ذلك ، فأقبل على الصيمرى والبحرى ينشده ملاحته فيه :

عن أَيْ ثَغْرِ تبتسمْ وبأى طَرْفٍ تحتكمْ

وقال له : أما تسمع ما يقول ؟ فقال له الصيمرى : بَلَسَى . فمررتى فيه بما أحببت . فقال : اهْجُجْهُ على هذا الرَّوِّى ، فحضرته على البديهة قصيدة هجاء طويلة من نفس الوزن والقافية ، وفيها يقول :

يا بُحْرِيْ حذارِ وَيْ لك من قُضاقِضَةٍ ضَغِمٌ^(١)
فبأى عِرْضٍ تعنصم وبهتكه جَفَّ القَلَمُ
ولقد أسلت بوالدي لك من الهجا سَيْلَ العَرِمِ
يا بن الثقيلة والثقي ل على قلوب ذوى النعم

ومضى يُفْشَحْش فى القصيدة ويُقْنَدَع فيها إقْداعاً قبيحاً . ولا ريب فى أن نَظْمَه قصيدة طويلة بهذا النمط على البديهة يدل على شاعرية قوية . وظلَّ خفيفاً على قلوب الخلفاء . يسلكونه فى ندمائهم حتى عصر المعتد . أو بعبارة أخرى حتى توفى فى عصر هذا الخليفة لسنة ٢٧٥ . وله يهجو طبيباً أخاه المسحى صالحاً :

(١) القضاقة : الأسد . ضغم : مفرس .

يا طيبَ أيامى بمعشوقِ ونحن فى بُعدٍ من السُّوقِ
إذا طلبت الخبز من فارسٍ ينفخ لى صالحٍ بالبوقِ

وله بجانب أهاجيه مدائح لبعض الوزراء ورؤساء الدواوين ، وما احتفظت له المصادر به قطعة فى مديح الحسن بن مخلد وزير المعتمد حين كان يتولى ديوان الضياع للمتوكل ، وهى تطرد على هذا النمط :

زارنى بدرٌ على غُصْنٍ قابلاً وَصَلَى يَقْبَلُنِي
خَلَّتْهُ لَمَّا أَتَى حُلُمًا وَهُوَ رَوْحِي رُدُّ فى بدنِي
إن لى عن مثله شُغْلًا بِمَقَالِ الشَّعْرِ فى الحَسَنِ
وأبيه مَخْلَدٌ فَبِهِ قَدْ لَبَسْنَا سَابِغَ المِنَنِ
كاتبٌ قَلَّ النُّظِيرُ لَهُ فَاضِلٌ فى العِلْمِ واللِّسَنِ

وشعره يسيل غدوبة ، وكأنما كان يقول أكثره ارتجالاً ، فلا تكلف فيه ولا تعمُّل ، ومع ذلك لا نجد فيه هلهلة فى النسيج ، إنما نجد المثانة التى تجعله سائغاً فى الآذان والأسماع . وله بعض نظرات وتأملات جيدة من مثل قوله :

كم مريضٍ قد عاش من بعد يأسٍ بعد موتِ الطبيبِ والعُودِ
قد يُصَادِ القَطَا فينجو سليماً ويحلُّ القضاء بالصيَادِ

وهى فكرة دقيقة ، فقد يعيش المريض الميتوس من شفائه المبكى عليه من محبيه وأودائه ، ويموت الطبيب الصحيح المعافى . وبالمثل قد يصاد طائر ، ويخطف الموت صائده ، بينما تُرَدُّ له حرته ويعود إلى رفرفته فى الهواء طليقاً .

(١) الحمدوني

اسمه إسماعيل بن إبراهيم الحمدوني ، جَدُّهُ حَمْدٌ وَبَنُوهُ صاحب الزنادقة لعهد الرشيد الذي كان يتعقبهم ويأمر بحبسهم أو محاكتهم ، ونجد أبنائه وأحفاده في أواخر العصر العباسي الأول وفي هذا العصر يخدمون الخلفاء ويتخذونهم ندماء لهم . وعُرِفَ إبراهيم أبو إسماعيل بأنه كان ينادم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل ، وكان ابنه أحمد على غراره نديماً للمتوكل ثم للمستعين . ولا نشك في أن إسماعيل كان على شاكلة أخيه وأبيه ينادم الخلفاء ، وكل شيء فيه كان يُعَدُّه هذه المنادمة ، إذ كان فكهماً خفيف الروح ، وكان شاعراً ، وصاحب قصص وأخبار ونوادر مضحكة ، واتجه بشعره إلى الهجاء ، ولكن أي هجاء ؟ الهجاء الذي يَلْسَعُ لَسْعَ الإِبْر من مثل قوله في سعيد بن حميد حين ولي رئاسة ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ سائراً منه ومن ملبسه الديوانية الجديدة :

لبس السيف سعيدٌ بعد ما عاش ذا طمرين لا نوبة له
إن لله آياتٍ وذا آيةٌ لله فينا مُنزَلَةٌ

فقد جرَّده من كل استحقاق للوظيفة وزيّها بالسيف الذي كان يتقلده . من يشغلها لعصره ، فهو خلو من كل كفاءة ، حتى ليعد تعيينه فيها معجزة لله لا يعلم سرها سواه . وكان سعيد ممن أنقوا فن الكتابة لعصره وبلغوا فيه شأواً بعيداً . ومن هجائه اللاذع قوله في بَغِيض :

سألتك بالله إلا صدقتَ وعلمي بأنك لا تصدقُ
أَتُبْغِضُ نَفْسَكَ من بُغْضِها وإلا فأنت إذن أَحَقُّ

لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة
٢٩٨/٣ و ٢٤/٥ و ٣٤٣/٧ و ٢٨٧
وديوان المعاني ١/ ٢٧٨ وزهر الآداب
٢٣٣ م وما بعدها

(١) انظر في الحمدوني وأخباره وأشعاره
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ وفوات
الوفيات ٢٤/ ١ والأغاني ١٢/ ٦١ وترجمة
أخيه أحمد في معجم الأدباء ٢/ ٢١٧ وتاريخ
الطبري ٩/ ٢٦٤ والمقد الفريد (طبعة

فهو خَلِيقُ بَأَن يَشْتَرِكُ مَعَ مَبْغُضِيهِ فِي بَغْضِ نَفْسِهِ ، وَكَأَنَّمَا أَصْبَحَ تَمَثَالًا لِلْبَغْضِ الْكَرِيهِ ، لَا عِنْدَ النَّاسِ فَحْسَبٌ ، بَلْ أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ نَفْسِهِ . وَيَا وَيْلَ مَنْ كَانَ يَسْلُطُ عَلَيْهِ سَهَامُ هِجَائِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ مَا يَسْتَبِي يُرْسَلُهَا عَلَيْهِ . وَحَدَّثَ أَنَّ مَدْرُجَهُ أَحْمَدَ بْنَ حَرْبِ الْمُهَلَّبِي الَّذِي طَالَمَا دَبَّحَ فِيهِ مَدَائِحَهُ وَهَبَ لَهُ طَيْلَسَانًا أَخْضَرَ لَمْ يَرْضَهُ ، فَضَيَّ يَنْظُمُ فِي طَيْلَسَانِهِ مَقْطُوعَاتٌ ، وَكَلَّمَا فَرَّغَ مِنْ مَقْطُوعَةٍ نَظُمَ مَقْطُوعَةً جَدِيدَةً حَتَّى أَكْمَلَهَا خَمْسِينَ مَقْطُوعَةً طَارَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَدْبَاءِ وَالنَّاسِ فِي عَصْرِهِ كُلِّ مَطَارٍ مِنْهَا :

يَا بْنَ حَرْبٍ كَسَوْنِي طَيْلَسَانًا مَلٌّ مِنْ صَحْبَةِ الزَّمَانِ وَصَدًّا
إِنْ تَنَفَّسْتُ فِيهِ يَنْشَقُّ شَقًّا أَوْ تَنَحَّضْتُ فِيهِ يَنْقُدُّ قَدًّا
طَالَ تَرْدَادُهُ إِلَى الرَّفْرِ حَتَّى لَوْ بَعَثْنَاهُ وَحْدَهُ لَتَهْدَى

وَأَلْذَعُ الْأَبْيَاتِ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ : بَلْ كُلُّهَا لَا ذَعَةَ . فَالطَيْلَسَانُ أَكَلَ الدَّهْرَ عَلَيْهِ وَشَرِبَ ، حَتَّى لَكَأَنَّمَا مَلٌّ صَحْبَةُ الدَّهْرِ ، فَقَدْ آتَى لَهُ أَنْ يَسْبُلَى وَيَسْتَرِيحَ ، وَإِنْ أَى حَرَكَةٍ فِيهِ لَتَمَزَقَهُ إِرْبًا ، وَكُلَّ يَوْمٍ يَنْخَرِقُ فِيهِ خَرَقٌ وَيَذْهَبُ بِهِ إِلَى دُكَّانِ الرَّفَاءِ ، حَتَّى لَوْ بَعَثَ بِهِ إِلَيْهِ لَعَرَفَ الطَّرِيقَ مِنْ طَوْلِ تَرْدَادِ سِيرِهِ فِيهِ . وَتَنَوَّعَ هِجَاؤُهُ لِهَذَا الطَيْلَسَانِ الْقَدِيمِ الْبَالِي ، فَهُوَ تَارَةٌ يَضُمُّهُ بَعْضُ أَلْفَاظِ قِرَائِيَةٍ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

طَيْلَسَانُ لَا بِنَ حَرْبٍ جَاءَنِي خَلْعَةٌ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ
فَإِذَا مَا الرِّيحُ هَبَّتْ نَحْوَهُ طَيْرَتُهُ كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ

وقوله :

فِيمَا كَسَانِيهِ ابْنُ حَرْبٍ مُعْتَبِرٌ فَانْظُرْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ إِحْدَى الْكُبَرِ
قَدْ كَانَ أَبْيَضَ ثُمَّ مَا زَلْنَا بِهِ نَرْفُوهُ حَتَّى اسْوَدَّ مِنْ صَدَا الْإِبْرِ

وتتوالى ألفاظ القرآن في الأبيات كما هو واضح في ألفاظ : (في يوم نحس مستمر) و (كالجراد المنتشر) و (إحدى الكبر) ، وكان يعرف كيف يضع اللفظة والآية القرآنية في مكانها السوي . وتارة كان يضمّن هذا الهجاء بعض أبيات شعرية من مثل قوله :

وهبت لنا ابن حرب طيلساناً يزيد المزة ذا الضعة اتضاعاً
ولست أشك أن قد كان قدماً لنوح في سفينته شراعاً
وقد غنيت إذ أبصرت منه جوانبه على بدني تداعي
« قفي قبل التفرق يا ضباعاً ولا يك موقفك منك الوداعاً »

وسخرية مرة أن يزعم أن هذا الطيلسان العتيق كان شراعاً لسفينة نوح في أعتق الأزمنة ، وصوّر نفسه ملثاعاً إزاء تداعيه على جسده نفس لوعة القطامي التي اشتملت في صدره عند فراقه لصاحبه « ضباعاً » . وقطع كثيرة كان يتغنى في نهايتها بأبيات على شاكلة بيت القطامي تصور أساه ، ودأماً يعرف كيف يختارها ، مما جعل القدماء يقولون إنه كان يحسن التضمين في شعره سواء لأبيات الشعر أو للألفاظ والآيات القرآنية . ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن سعيد بن أحمد بن خوسنداذ أهدها شاة هزيلة فضى يكثر من نظم مقطوعات كثيرة في تلك الشاة مصوراً هزأها وبؤسها ، صانعاً نفس ما صنعه بهجاء طيلسان ابن حرب من التضمين لأبيات الشعر المشهورة في الغزل والحب ، من مثل قوله :

مرّت على علفٍ فقامت لم تَسِرْ عنه وغنّت والمدامع تسجُم
« وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي متأخراً عنه ولا متقدّم »

والبيت الثاني من قطعة في الغزل مشهورة لأبي الشيص كان يعجب بها معاصره أبو نواس إعجاباً شديداً . وعلى الرغم مما كانت منادمة الخلفاء توفّره له من أموال كان يدعى الحاجة وأنه مقتّر عليه في الرزق ، وله يشكو ضيق عيشه ، بينما غيره موسّع له في الرزق ينعم بأسباب الترف والنعيم :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ فنحن من نَظَارَةِ الدُّنْيَا
نَرْمَقُهَا مِنْ كَتَبٍ حَسْرَةٍ كَأَنَّا لَفْظٌ بِلَا مَعْنَى

وله قصيدة رواها ابن عبد ربه في العقد الفريد نظمها معارضة للامية تأبط
شراً المشهورة ، وفيها يتحدث عن حبه وفوته وعزمه ومضائه وبأسه وشجاعته من
مثل قوله :

هُوَ سَيْفٌ غَمْدُهُ بُرْدَتَاهُ يَنْتَضِيهِ الْحَزْمُ حِينَ يُسَلُّ
لَا يَشْكُ السَّمْعُ حِينَ يَرَاهُ أَنَّهُ بِالْيَدِ سَمْعٌ أَزَلُّ (١)

وألفاظه في القصيدة وقوافيه تلتقي مع قوافي تأبط شراً وألفاظه ، وكأنما قصد إلى
ذلك قصداً يريد تضمين قصيدته نفس كلماته . وله في الغزل قطع تصور حبه
واوعته فيه وظمأه إلى رؤية محبوبته وما قد يصلاه من عذاب الهجر ونيرانه ، وله في
وصف طروق طيف الخيال في المنام قطعة جيدة يقول في تضاعيفها :

وَصَلَ الْحَلْمُ بَيْنَنَا بَعْدَ هَجْرٍ فَاجْتَمَعْنَا وَنَحْنُ مَفْتَرِقَانِ
وَكَأَنَّ الْأَرْوَاحَ خَافَتْ رَقِيباً فَطَوَتْ سِرَّهَا عَنِ الْأَبْدَانِ

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور خصب شاعريته . ومن أكبر الدلالة على ذلك
القطع الكثيرة التي أنشدها في هجاء شاة سعيد وطيلسان ابن حرب ، وكأنه كان
يستمد من نبع لا ينضب رصيده .

(١) السمع : الذنب . الأزل : المتولد بين
ذنب وضع

هو على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، من بيت كتابة وأدب ، كان جده نصر يتولى دواوين الخاتم والنفقات والأزمنة في أيام المعتصم وهو من ممدوحى أبى تمام ، بينما كان أبوه محمد من ممدوحى البحتري ، ويقول المسعودى إنه كان مترفاً حسن الرىّ ظاهر المروءة مشغوفاً بالبناء ، ويتروى عن بعض معاصريه ما يصور بذخه في بناء داره وفي ثيابه وطعامه وشرابه . وكان قد تزوج أمامة بنت حمدون النديم ، والحديث عن بنى حمدون في المصادر مضطرب ، ويبدو أنها كانت أخت إسماعيل المترجم له آنفاً ، ومنها أنجب ابنه علياً ، وقد عني بتربيته أبوه ، حتى أصبح شاعراً ، وحتى أصبح التأليف إحدى هواياته . ويروى له ابن النديم ومترجموه كتباً مختلفة عن عمر بن أبى ربيعة والأحوص ومناقضات الشعراء ، ويذكرون له ديوان رسائل ، مما يدل على أنه كان كاتباً كما كان شاعراً . ونراه يتجه منذ نشأته بشعره نحو الهجاء ، وقد يكون لحاله الحمد وفي أثر في ذلك . وكان شيعياً ، وربما كان لتشيعه أثر في ذلك أيضاً ، فقد كان الشيعة ناقلين على الدولة والناس انصرافهم عنهم ، بل كانت نقيمتهم على الدولة أشد وأدهى ، للزج بهم في السجون وتقتيلهم ، وكأنما اتخذ الهجاء سلاحاً له ضد الخلفاء والمجتمع ويبدو أن أباه كان موالياً للعباسيين ، ولعل هذا هو السر في كثرة أهاجيه له ، حتى عدّ في العققة الذين لا يبرون آباءهم بل يمحذون فضلهم ، وله في أبيه أهاج كثيرة من مثل قوله فيه وكان يكنى أبا جعفر :

بَنَى أَبُو جَعْفَرٍ دَارًا فَشَيْدَهَا وَمِثْلُهُ لَخِيَارِ الدُّورِ بِنَاءً
فَالْجُوعَ دَاخِلَهَا وَالذَّلَّ خَارِجَهَا وَفِي جَوَانِبِهَا بُؤْسٌ وَضَرَاءُ

وكانت قصرًا عظيمًا يدور من حوله بستان وتلمع أمامه بركة ويموج بالغزلان والطيور البهيجة الألوان . ويتمادى في هجائه له حتى ليقول فيه وفي داره أيضاً :

وما يليها وذيل زهر الآداب ص ١٨٠ وديوان
المعانى ٢٣ / ٢ ، ٢٣٤ والنجوم الزاهرة
١٨٩ / ٣

(١) انظر في ابن بسام وأخباره وأشعاره
الفهرست ص ٢٢٠ ومجمع الشعراء ص ١٥٤
وتاريخ بغداد ٦٣ / ٢ ومروج الذهب للمسعودى
٣٠٦ / ٤ وما بعدها وزهر الآداب ٨٧ / ٣

شَدَّتْ دَارًا خَلَّتْهَا مَكْرُمَةً سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْغُرَقَا
وَأَرَانِيكَ صَرِيعًا وَسَطَهَا وَأَرَانِيهَا صَعِيدًا زَلَقَا^(١)

صورة سيئة من العقوق أن يتلقى من أبيه الحياة ، فلا يشعر بأن له عليه ديناً إذ منحه الوجود وقام على تربيته، بل لكأنما جَسَنِي عليه جناية لا تغتفر، ولا يمكن أن يزيلها عن نفسه ويمسح أوضارها عن جسده إلا اللعنات يصبها على أبيه . ومضى يصبها على الخلفاء والوزراء والكتّاب وكبار رجال الدولة غير هيّاب ولا وجل ، بل لكأنما كان يبحث عن منتقم منه ويطير به طيرة بطيئاً سقوطها . وكان من أوائل من تعرض لهم بالهجاء الموفق صاحب البلاء العظيم في حروب الزنج والصفار . ونراه ينظم فيه وفي ولاته ووزرائه وموظفيه قصيدة يستهلها بقوله :

أَبْرَجُو الْمَوْفِقُ نَصَرَ الْإِلَهِ وَأَمَرُ الْعِبَادِ إِلَى دَانِيَسَهْ

ويأخذ في هجاء ولاته من مثل الطائي أمير البصرة وإسحق بن عمران أمير الكوفة ووزرائه من مثل إسماعيل بن بلبل ، وصاعد بن مخلد وكان نصرانياً وأسلم واستوزره الموفق ، ويصيح :

فَخَلَّ الزَّمَانُ لِأَوْغَادِهِ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ وَالْهَآوِيَةِ

ويُظْلِمُهُ عصر المعتضد المعروف بجبروته وأنه كان يلقى الأسد وحده وأنه إذا غضب على قائد أمر أن تُحْفَرَ له حَفِيرَةٌ وَيُلْقَى فِيهَا وَتُطَمَّ عَلَيْهِ ، ومع ذلك نراه لا يخاف بطشه ولا يخشى بأسه ، إذ نراه يتعرض له بالهجاء ، وتارة يقدح فيه وتارة يخز وخز الإبر من مثل قوله في احتفاله بختان ابنه المقتدر :

انصرفت الناس من خَتَانٍ يَرْعُونَ مِنْ جُوعِهِمْ خُرَايَ^(٢)

فقلت لا تعجبوا لهذا فهكذا تُخَتَّنُ الْيَتَامَى

وهو يصفه بالبخل الشديد وأن احتفاله بهذا الختان كان بائساً . حتى لكأنما هو خِتَانٌ بعض اليتامى الذين لا يجدون من يتيح لهم احتفالاً عظيماً بختانهم .

(١) صيداً زلقاً : أرضاً ملساء . (٢) الخزاي : من أزار البادية

ونراه يكثر من هجاء إسماعيل بن بلبل ، على نحو ما أكثر من هجاء صاعد ابن مخلد ، وفيه يقول :

سجدنا للقرود رجاء دُنْيا حَوَتْها دوننا أَيْدى القُرود
فما نالت أَناملُنا لشيءٍ عملناه سوى ذل السجود

وكان نصيب عبید الله بن سليمان بن وهب وزير الموفق وأخيه الخليفة المعتمد من أهاجيه كبيراً ، تارة يصفه بـ «مُخطِل الرأى» وتارة يهدده بسوء المصير . ونراه ينتهز فرصة وفاة ابنه الحسن فيهجو ابنه القاسم ، مادحاً للحسن حتى يملأ نفس القاسم غيظاً وحنقاً إذ يقول :

قُلْ لِأَبى القاسم المَرْجى قَابِلِك الدَّهْرُ بالعجائبُ
مات لك ابنٌ وكان زِيناً وعاش ذو الشَّينِ والمعائب
حياة هذا كموت هذا فلستَ تخلو من المصائب

ولاكت الألسنة البيت الأخير وسمعه المعتضد فنصح وزيره القاسم أن يوظفه في عمل وأن يبرّه ويصله حتى يكفّ عن هجائه ، فوَلَّاهُ بريد الصَّيْمُرَةِ وما والاها ، وقيل بل ولاه بريد قنَسَرين والعواصم ، وبقي في عمله إلى آخر أيام المعتضد ، ويبدو أن العباس بن الحسن وزير المكتفى رأى الاستغناء عنه ، ولعله لذلك أكثر من هجائه ، ومرّ بنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن نشاط الشعر ، وفيه يقول :

تَحْمَلُ أَوْزَارَ البريَّةِ كُلِّها وزيرٌ بظلم العالمين يُجَاهِرُ

واتخذ من شعره سياطاً يلهب بها ظهور ابن الفرات والحقاقى ويزرى المقتدر وله في الأخير أهاج كثيرة تصور خياناته لأموال الأمة وما كان يدفع إليه الناس من تقديم الرشوة في كل عمل يحققه لهم ، وسبق أن عرضنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن فساد الحكم حينئذ . وكانت له مناقضات مع الشعراء يقصد بها إلى الدعاية ، ومرّ بنا في حديثنا عن ابن المعتز أنه نظم فيه مقطوعة دالية داعبه فيها واصفاً ثقله ، ونرى ابن بسام يردّ عليه بقوله على نفس طريقته :

فقدتُك يا قذاةً في شرابٍ دخلتَ من الدناءة كلَّ بابٍ
وأثقل - حين تبدو - من رقيبٍ وأكذب - حين تنطق - من سرابٍ
وأغدر للصديق من الليالي وأنكى للقلوب من العتاب

وكان يناقض جحظة البرمكى كثيراً . وكان على غراره كثير الهجاء ، وكان قبيح
الخلقة تقتحمه العيون ، وصوّر ذلك ابن بسام عابثاً به وبقبحه ، إذ يشكره على
إقباله عليه بدابته وانصرافه عنه بوجهه الذميم ، يقول :

لِجَحْظَةِ المحسنِ عندى يَدٌ أشكرها منه إلى المحشرِ
لما أرانى وجهه برّذونه وصاننى عن وجهه المنكر

وعلى هذا النحو لم يسلم من هجاء ابن بسام خليفة ولا وزير ولا أمير ولا صغير
ولا كبير ، بل لم يسلم منه أبوه وأهل بيته . وله وراء هذا الهجاء مديح لبعض الوزراء
مثل ابن مقلّة ونعت لبعض الأزهار مثل النرجس ، وله فى الزهد وفناء الحياة أبيات
طريقة تجرى على هذا النمط :

أَقْصَرْتُ عن طلب البَطالة والصِّبا لما علانى للمَشيبِ قِناعُ
لله أيامُ الشباب ولهوهِ لو أن أيامَ الشباب تُباعُ
فَدَعِ الصِّبا يا قلبُ واسألُ عن الهَوَى ما فىكَ بعدَ مشيبِكَ استمتاعُ
وانظرْ إلى الدنيا بعينِ مودِّعٍ فلقد دنا سَفَرٌ وحنَّ وداعُ
والحادثاتُ موكِّلاتُ بالفتى والناسُ بعدَ الحادثاتِ سماعُ

والأبيات تصوّره قد وخطّطهُ الشيبُ وأخذ يفكر فى غَدِهِ ويستعدّ لمصيره ،
بعد تلك الرحلة الطويلة التى كان يجاهد فيها مجتمعه بأهاجيه حتى وفاته سنة ٣٠٣
للهجرة . ومن المؤكّد أن أهاجيه تصوّر العصر فى صورة أدق من تلك التى يصورها
المديح ، وأن الحياة فيه لم تكن صافية ولا رائقة ، بل كانت كدرة قائمة ، اختلّت
فيها الموازين والقيم اختلالاً شديداً .